



الدكتور محمد راجوادی

أُمَّتُنَّ صِبَا سَطَّانَ الْإِسْلَامِ مَوْفِيَا



أَنْتَ تَصِيَّبُ السَّطْرَيْنِ
الْمِثْلَ الْهَوْفَيْنِ

الدكتور محمد راجوادي

أَنْتِ صَالِحَةٌ طَائِرٌ
الْبَيْتِ إِمْوَفِيَا



ω

الطبعة الأولى

1441 هـ - 2020 م

رادمك -- ISBN

978-625-7810-59-3



للطباعة والنشر والتوزيع

هذا الكتاب

يتنفس هذا الكتاب مجموعة من الأمنيات الجميلة التي ترنو بشغف إلى رسم أليات لنهاية سرطان الإسلاموفوبيا من خلال تشريح حالتها الراهنة وتحليل تطوراتها المرضية المؤجل علاجها والقبلة للشفاء .

في الباب الأول نقدم مقارنة مستحدثة لما نشهده من الصراع مع الإسلام ، فنستعرض في الفصل الأول جوهر الصراع الأمريكي الراهن تجاه الإسلام ونجيب في الفصل الثاني عن السؤال القائل بمدى تحول الحرب على الإسلام إلى مرض وبائي، كما نعدد في الفصل الثالث أسباب تأجج الصراع الديني في عصر العولمة.

وفي الباب الثاني " الخوف من الإسلام " نتحدث عن العوامل الكفيلة بفهم طبيعة هذا الخوف وسبل مواجهة الفهم الخاطئ فنرسم في الفصل الرابع أكثر من سبيل إلى استيعاب الصليبية الجديدة ، ونستعرض في الفصل الخامس بعض طبائع الذين يعادون الديمقراطية خوفا من الإسلام ، ونطرح في الفصل السادس رؤية لإشكالية العلاقة الغربية مع النظم الإسلامية الصاعدة من خلال رؤية استباقية لما يتصوره الباحثون عن مستقبل أمريكا نفسها فيما بعد أر دوغان.

أما في الباب الثالث فنقدم مقارنة جديدة للحديث عن الإرهاب ، حيث يلقي الفصل السابع الضوء على نماذج محددة لأليات ذكية في مواجهة الإرهاب ، بينما يقارن الفصل الثامن بين مفهومين مشتبهين هما تضخيم الإرهاب وتفتيت الآخر على حين يتساءل الفصل التاسع عن أوان رحيل نموذج بارز ومزعج لإرهاب الدولة متمثلا في بشار الأسد؟

و يبشر الباب الرابع بإمكانية وجود بعض الإيجابيات في الحقبة الجديدة من العلاقات الإسلامية مع أمريكا ، فنذهب في الفصل العاشر إلى القول بأن من حق العرب أن يتفألوا بنهج الرئيس ترمب ، لكننا لا نتوقف عند هذا ، وانما نتناول الوجه الآخر للقضية فنرسم في الفصل الحادي عشر السبيل إلى مواجهة سياسية مفروضة في مواجهة الرئيس الأمريكي و نوابه، وفي صعيد ثالث يبشر الفصل الثاني عشر بانحسار المؤشرات الكارثية لحقبة اللا مسئولية ؟

ثم يأتي الباب الخامس بعنوانه الدال على مضمونه و إيمانه بوجود نهايات مبكرة لتخوفات متوقعة، فيستعرض الفصل الثالث عشر نهاية أمني رئيس أمريكي في الشوق لتكرار نظرية الاستعمار القديم ، ويتساءل بطريق النفي عن احتمال تضحية أمريكا بالديموقراطية ، أو أنها سوف تتجه لنظام ديموقراطي بلا كاريزما ؟ ونزيد هذه الفكرة توكيدا في الفصل الخامس عشر الذي يرسم صورة للرئيس الأمريكي في مرايا الفئات المختلفة من الأمريكيين .

ثم نخصص الباب السادس للحديث عن الفكر الوقائي الضامن لاطمئنان الغرب فيما يتعلق بالحركات الإسلامية والمفاهيم الحاكمة للعمل الإسلامي ، ونشير في الفصل السادس عشر إلى بعض المظاهر الدالة على رقي القانون الدولي الإسلامي فيما يتعلق بحرية الرأي، وعدم الإكراه، وتطور ملامح العلاقات الدولية في القوانين الإسلامية، وإنسانية القواعد الفقهية الحاكمة للحروب وللأداء العسكري فيها ، وإلى القواعد الذكبية التي يستند إليها تنظيم فقه التعاهد في الإسلام منذ عهد النبي محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

وفي الفصل السابع عشر نقدم محاولة غير مسبوقه للتعريف بجماعات الإسلام السياسي المعاصرة من منظور منهجي يفهمه الجميع و بخاصة من يعايشون الفكر الغربي الحديث الذي يشخص آليات العمل والانتماء بدلاً من الإفراط في تحليل النصوص والانحصار في قراءة الفلسفة، وفي هذا الصدد فإننا نتناول بالتعريف والتمييز ما نتصور أنه الفروق البارزة بين جماعات الإخوان المسلمين والجمعية الشرعية لتعاون العاملين بالقرآن الكريم والسنة المحمدية، وجماعة أنصار السنة المحمدية، والجماعة الإسلامية، وحزب الوسط ، وجماعات الإسلام السياسي السعودي على سبيل الإجمال مع الاعتراف بالنفور السعودي من إطلاق مصطلح الوهابية أو السلفية على النحو الذي يطلقه الغربيون.

وفي الفصل الثامن عشر نقدم دراسة من طراز خاص تقوم على سيناريوهات الحوار الذي يفترض وجود طرفين أحدهما خبير سياسي يجيب على ما يُبديه أمير سعودي (من السعوديين الجدد) من تعجب تجاه المواقف التي ينتهجها الإعلام الغربي في تعامله المعلق على تصرفات الأمير وسياساته، ويلخص هذا الفصل عشرًا من الأسئلة التي يضرب بها الأمير السعودي المثل على تحامل الاعلام العالمي عليه على الرغم من صواب طرحه ومشروعيته مُستهدياً بأداء اسلاف له من الحكام العرب كان أدأؤهم في كثير من الجزئيات مشابهاً تماماً للأداء الذي بدأه هو وأصبح يواجه الانتقاد بسببه.

وفي الباب السابع من هذا الكتاب نواجه المفاهيم المغلوطة في علاج الإسلاموفوبيا وفي تشخيصها من باب أولى ، فنبدأ في الفصل التاسع عشر بالحديث عن التطور التاريخي الذي لا يزال يفتعل إصااق الفاشية بالتنظيمات السياسية الإسلامية من دون منطوق عملي واضح، ونشخص دور اليسار في هذه الآلية التي باتت من المُسلّمات رغم اقتقادها للمنطق الداعم لصوابها .

وفي الفصل العشرين نتأمل في المستقبل الحائر لمشروع فكري اجتماعي بدأ في التشكيل وأسميناه تبعاً لمعطياته بمشروع السلفية الوجودية التي تحتفظ من مقومات السلفية بطاعة ولي الأمر مع الحرص على ارتياد مناطق التجليات الوجودية المعروفة بالإغراق في فنون قتل الوقت مع استبعاد مقصود ومؤكد لفكرة الجمع بين العلم والإيمان.

وفي الفصل الحادي والعشرين نتحدث عن مظاهر التطرف في الوجودية التي تبنتها جماعة سلفية معاصرة رغم ما في هذا التبني من تناقض فكري وفلسفي مع جوهر السلفية لكنها قننت المشروع اعتمداً على ما هو متاح للسلطة من قوة وإرادة سولت لها أن تتبنى هذه الرؤية في إحداث أو إنفاذ تغيير من نوع غير متوقع.

أما الباب الثامن والأخير فيستعرض عدداً من التجارب الفاصلة التي أثبتت نجاحا عبقريا في تجاوز نواة الاسلاموفوبيا منذ ستين عاما حين وقعت أولى الحروب العربية الحديثة في ١٩٤٨، ففي الفصل الثاني والعشرين نحتفل بأداء بابا الروم الأرثوذكسي الذي كان من الذكاء بحيث رفض مبكراً فكرة الدولتين، كما رفض منح الفاتيكان السيادة في فلسطين وتعرض من جراء هذا لهجوم اليهود، وانتقامهم، ونعرض في الفصل الثالث والعشرين موقفا لا يقل عظمة للبابا يوساب بابا الأقباط الأرثوذكس في مصر الذي وقف بكل وضوح مع الحق الفلسطيني وتحمل من أجل هذا كثيراً من المتاعب والتشويه، وننقل عن المفكر المصري المستقل الأستاذ محمود شاكر ما أثنى به على هذا الرجل العظيم وعلى سماته وأدائه.

وفي المقابل فإننا في الفصل الرابع والعشرين نعيد طرح الأسئلة المحددة التي كان الأستاذ محمود شاكر قد طرحها على الحاخام حاييم ناحوم عن موقفه غير الواضح من الاعتداءات الإسرائيلية في فلسطين وعن مطالبته له بأن يتخذ هو واليهود المصريون موقفا واضحا من قرار التقسيم ، ومن خطة الصهيونية.

ونختم هذا الكتاب بالفصل الخامس والعشرين الذي يعرض رؤية تأملية فاحصة في طبيعة اللحظة التي يتخلى فيها الغرب عن عملائه.

وكلي دعاء إلي الله أن يوفقني إلي تقديم ما تبقى من أعمالي ، وقد طال العهد بتجاربها المطبعية في ظل غربتي ومرضي وتشردتي واستيحاشي ، والوقت لا يسعفني، والجهد يتضاءل، والذكاء يخبو ، و الألمعية تنطفئ ، والقلب يئن ، والنظر يكل ، والعقل يتشتت ، والذاكرة تتبدد ، و السهل يتعقد ، والنفس يتقطع ، والأمل يتضعضع ، والعمر قصير ، والواجب كبير ، والمؤجل كثير ، لكن رجائي يتضاعف في فضل الله جل جلاله وكرمه..

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يقيني شر الهوى، وأن يقيني شر التعجل، وأن يقيني شر الانخداع، وأن يرزقني الغنى والهدى والعفاف والتقوى، وأن يتجاوز عن سيئاتي، وأن يتغمدني برحمته، وأن يديم عليّ توفيقه، وأن يجعلني قادراً على شكر فضله . والله سبحانه وتعالى أسأل أن يهديني سواء السبيل ، ان يجعل عملي خالصا لوجهه الكريم .

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يقيني شر الهوى، وأن يقيني شر التعجل، وأن يقيني شر الانخداع، وأن يرزقني الغنى والهدى والعفاف والتقوى، وأن يتجاوز عن سيئاتي، وأن يتغمدني برحمته، وأن يديم عليّ توفيقه، وأن يجعلني قادرًا على شكر فضله.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يذهب عني ما أشكو من ألم ووصب وقلق، وأن يحسن ختامي، وأن يجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاه.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يمتعني بسمعي وبصري وقوتي ما حبيت، وأن يحفظ عليّ عقلي وذاكرتي، وأن يجعل كل ذلك الوارث مني.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يهديني سواء السبيل، وأن يرزقني العفاف والغني، والبر والتقوى، والفضل والهدى، والسعد والرضا، وأن ينعم عليّ بروح طالب العلم، وقلب الطفل الكبير، وإيمان العجائز، ويقين الموحدين، وشك الأطباء، وتساؤلات الباحثين.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يعينني على نفسي، وأن يكفيني شرها، وشر الناس، وأن يوفقني لأن أتم ما بدأت، وأن ينفعني بما علمني، وأن يعلمني ما ينفعني، وأن يمكنني من القيام بحق شكره وحمده وعبادته، فهو وحده الذي منحني العقل، والمعرفة، والمنطق، والفكر، والذاكرة، والصحة، والوقت، والقدرة، والجهد، والمال، والقبول، وهو جلّ جلاله الذي هداني، ووفقني، وأكرمني، ونعمني، وحبب فيه خلقه، وهو وحده القادر على أن يتجاوز عن سيئاتي وهي ، بالطبع وبالتأكيد، كثيرة ومتواترة ومتنامية، فله سبحانه وتعالى - وحده - الحمد، والشكر، والثناء الحسن الجميل.

د. محمد الجوادي

الباب الأول

الصراع مع الإسلام

الفصل الأول

جوهر الصراع الأمريكي الراهن تجاه الإسلام

النمط المطلوب

كنت أعرف طبيبا ناجحا اشتغل بالسياسة منذ نعومة أظافره ؛ واجتهد في ألا تكون السياسة مهنته الأولى ولا الثانية ؛ و نجح في هذا ؛ لكن اسمه كان بحكم ما نال من تقدير يُستدعى إلى الذاكرة عندما تدعو الحاجة إلى شغل هذا المنصب أو ذاك ؛ لكن شيئا ما كان يحول دون استجابته أو اختياره ؛ و كان كلا الأمرين واردين ؛ لكننا لم نكن نملك تفسيرا باتا أو باترا ، فلما حدثت ثورات الربيع العربي أصبح دون جهد منه واحدا من نجومها ؛ وبرز اسمه بطريقة واثقة ؛ ولما حدث الانقلاب كان له دور مقدور في التتوير و التثوير والمقاومة .

أتيحت لي الفرصة ذات مرة لأفاجئه بسؤال مباشر عن سبب حيرتنا في بعده عن المناصب وبعدها عنه ، لكنه أخذ يراوغني بما لم أتحمس لسماعه من الإجابات الجاهزة ؛ ثم صفت نفسه لي فأخبرني بكل تغليف وتبطين ممكن أنه كان مرشحا لأعلى المناصب بالفعل ؛ وأنه لم يكن هناك أحد إلا وتحمس لترشيحه ، بما في ذلك الجناح الظاهر من الماكينة الأمريكية العملاقة لكن الجناح الخفي من هذه الماكينة أجرى له (دون أن يدري تماما) عدة اختبارات من طراز المقابلة الشخصية. Interviews وانتهى إلى عدم صلاحياته بتاتا لخطورته الشديدة على السياسة الأمريكية.

كانت القصة مثيرة بالفعل؛ ولم يشأ صديقي بالطبع أن يحكي كل تفصيلاتها؛ وكنت أقدر هذا ؛ لكنني مع هذا استطعت أن استخلص بعض الملامح المنبئة عن طبيعة الرؤية الأمريكية للمثاليات المتطلبة في شخصيات القياديين المتعاونين معها من البلاد الإسلامية . ومدى علاقة هذه الرؤية بالصراع الحالي الذي تخوضه شعوبنا مع إمبريالية واضحة الغلو في استهدافيتها وليس في أهدافها فحسب .

السؤال عن النية

أبدأ بالسؤال الأهم الذي وجه إلى صديقي و لم ترق إجابته عليه للأمريكيين الذين حاوروه : ماذا هو فاعل أو ماذا ينوي أن يفعل في مكافحة الإرهاب ؟ وكان صديقي بحكم الحياة والثقافة

والسياسة جاهزا بالرد في نقاط محددة استمع إليها الأمريكيون في هدوء ثم بدأوا يعارضونه فيها واحدة.. واحدة .

بدأ صديقي فأثبت اختلافه معهم كلية في تعريف الإرهاب ، وفي وجوده وعدمه ؛ وفي طبيعته وبأثولوجيته ؛ ولم يضع الأمريكيون وقتا في فهم ما يقوله ولا مناقشته ، مستندين إلى ميكائيل القول بأنهم يتحدثون عن العلاج لا عن التشخيص ؛ و أنهم سيشركونه بالطبع في التشخيص ولن يفرضوه عليه ؛ لكن هذا موضوع آخر ؛ وفهم صديقي أن هؤلاء يريدون القول بأنهم يتحدثون عن " تنفيذيات " لا عن " رؤي " فتقبل المضي في طرح أفكار ذكية فيما كانت المناقشة تدور حوله هو نفسه و بطريقة أقل ذكاء تستهدف أن تستوفي الأوراق فحسب .

طرح صديقي رؤيته القائلة بأولوية ترقية وتنمية البنية التشييدية و المعمارية والإصلاحية والدينية للمساجد وما يرتبط بها من ملحقاتها التقليدية كمكاتب تحفيظ القرآن والعمل على التوسع في هذه الإنشاءات للوفاء بالاحتياجات الإنسانية المرتبطة بالعبادة والاتصال الروحي ولتعويض ما اعتزى هذه المؤسسات من نقص وانكماش في العقود الأخيرة بسبب الحروب والحالة الاقتصادية ؛ و للحيلولة دون نشأة البؤر الصغيرة التي تجيد الأجهزة والتقارير والدراسات الأمنية وصفها باعتبارها مراكز تفريخ التطرف ومن ثم الإرهاب في مرحلة لاحقة مباشرة.

آية منذنة جديدة

أبدى الأمريكيون إعجابهم بنمط التفكير الذكي غير المطروق من قبل فيما طالعوه من الأدبيات ؛ لكنهم كانوا ملقنين ومتشبعين تماما بفكرة خبيثة مستترة هي الحيلولة دون ظهور آية منذنة جديدة تحت أي مسمى ؛ وهكذا أدرك صديقي مبكرا أن جوهر القضية عند هؤلاء هو " العنصر الصليبي " لا " العنصر الأمني " .

انتقل صديقي للحديث عن ضرورة العودة بدراسات الحضارة و الأدب و تاريخ الفن إلى مسار التسامح بما يقتضيه هذا من تعدد دراسات الأديان والمذاهب والفرق ؛ ومع أنه أجاد عرض وجهة نظره وانتصر في المناقشات الاعتراضية ، فإنه فوجئ بما أمكنه تشخيصه على أن المناخ المتاح في الحوار الأمريكي الإسلامي قد أصبح مناخ استعلاء امبريالي حتى على الحق وحتى على مصلحة الأمريكيين .

و قد اتضح له هذا بجلاء لا يقبل اللبس من تقرير هؤلاء بكل صراحة أن تعبير القيم الأمريكية لا يعني الانتصار للديموقراطية مثلا ، وإنما يعني الانتصار للمصالح الأمريكية على نحو ما يراها خبراء الإنتاج مع تغليف رؤيتهم بمصطلحات وتعبيرات كثيفة تعطي الإيحاء القوي بالانحياز الفعال للديموقراطية إذا ما كان هذا التغليف ممكنا ؛ وإلا فإن تعبير المصالح الأمريكية مع فجاجته

وقسوته قادر على التكفل بإقناع كل سيناتور أمريكي (مهما أبدى من مثاليات) قبل أن يتوجه لإقناع الرأي العام العالمي .

على هذا النحو كانت أطروحات صديقي تتوالى وتحدث التفاعل فتثبت له ردود أفعال و تعليقات النخبة الأمريكية التي حاورته أن الأمريكيين لا يعانون إرهابا ولا يعالجونه ولا يقصدون علاجه ؛ وإنما هم حريصون على حضائنه إن لم يكن على صناعته وإنتاجه.

الاستثمار المجدي في الإرهاب

و على صعيد آخر ، فقد كانت الميادين التي ارتادتها مناقشات الأمريكيين كاشفة بكل وضوح عن رغبتهم في استمرار الاستثمار المجدي في مجال الحديث المتنامي عن الإرهاب .
كان الميدان الأول هو حرصهم على إظهار مهارتهم في استعراضهم السخيف لمذابح الأرمن مع احتقار ضمني للأرمن أنفسهم ؛ و قد صدموا بأن سمعوا بأن رئيس وزراء مصر في القرن التاسع عشر كان أرمنيا عثمانيا . لكن هذا لم يهيب لهم أية رغبة ؛ ولو محدودة ؛في مراجعة صلاحية بضاعة فاسدة أمسكوا بها أو عضوا عليها بالنواجذ كما يقول التعبير العربي .

السنة والشيعية

وكان الميدان الثاني هو حرصهم الشديد على تضخيم الخلاف بين السنة والشيعية في كل جملة من جمل الحوار ؛ مستندين إلى تصورات بائدة في عرف الفكر الإسلامي والإنساني الراهن ؛ و كأنهم وصلوا إلى النقطة الذروة فيما يعتبرونه مسرحية سقوط الإسلام على حسب تصورهم الدرامي المولع في لا معقوليته ؛ والمبني على حوار ضعيف المنطق ، لكنه جديد الديكور و المؤثرات السمعية .

وكان من الواضح إن هذا المجال من المنتوجات المرتبطة بالإسهام في الاستثمار في الإرهاب صناعة وتجارة سيكون هو الميدان الأوسع في قابل الأيام .

وكان الميدان الثالث لمناقشات الأمريكيين أو اختبارهم لصديقي هو مدى قبوله لمبدأ التعاون مع أعداء قوميين تقليديين " سابقين " من أجل إحراز النجاح في عملية مرحلية أو موضعية من عمليات مكافحة الإرهاب ؛ وكان صديقي في نظر نفسه موقفا حين تعمد أن يتجاهل عبارات المجاملة : و أولويات المبدأ ؛ و عبقورية الفهم الذي عبرت عنه عبارة تاريخية من طراز : " يا عمال العالم اتحدوا " ؛ و ذلك في مقابل أن يطرح على مناقشيه الأمريكيين رؤية الشارع الإسلامي التي لا ترى ولن ترى في هذا التصرف إلا إعلانا صريحا بالعمالة المرفوضة لإسرائيل مع كل ما توحى به هذه العمالة من مشاعر التقزز الخلفي ؛ وما تستدعيه من معقبات السقوط السياسي .

الفصل الثاني

هل تحولت الحرب على الإسلام إلى مرض وبائي؟

الإسلام السني

كان ما حدث في سوريا طيلة السنوات الماضية برهاننا ساطعا على تصاعد الوقائع المكونة للحرب العالمية الثالثة ؛ وهي حرب من طراز عصري ومعرفي جديد تتمثل أولى سماتها في كون الحرب من أطراف متعددة ، و على جبهات متعددة ، لكنها تنصب على طرف واحد فقط تصب عليه قذائفها ، كما أنها تستهدف إنجازا واحدا ؛ وهي لا تعلن غايتها صراحة ، ولا تعترف بتضارفا أو تآزرها بوضوح مهما تشاركت فيها (من باب التوافق أو التواطؤ) أطراف عديدة تسعى إلى جوهر الهدف نفسه ، وتعاني من عقدة الماضي ذاتها .

أما المستهدف من هذه الحرب فهو الجماعة الكبيرة والنهر المتدفق من اتباع دين الإسلام ، وهم الذين تعارف التاريخ والواقع على وصفهم بما وصفهم به علماءه من أنهم هم أهل السنة والجماعة أو الإسلام السني (وليس الصفوي ولا الشيعي ولا الوسطي الجميل) .

ومع تعدد واختلاف الجماعات الفكرية في داخل هذا الفصيل وتنوع مواقفها حتى في قبولها (أو عدم قبولها) للأسماء التي تسمى بها أو تعرف بها في أدبيات الآخرين، أو تطلق على بعضها في المجادلات العلمية والسياسية (على نحو ما يتمثل في موقف الوهابيين الذين يستنكرون تسميتهم بهذا الاسم الذي يرونه أضييق من أن يحيط بهم) ، فإن هناك إجماعا يقينيا على هذا الفهم التاريخي لمصطلح أهل السنة (و إن كان غير رسمي كذلك) ، وهو إجماع فقهي وعلمي (بالطبع) ، وقد يمتد إلى القول في بساطة بأن الإسلام السني هو ما ليس بالشيعي !!

استثمار الأسماء الراححة

هذا إذاً هو الطرف الذي تشن عليه الحرب بوضوح في السلاح وخبث في التصريحات .

أما أبرز ملمح من ملامح هذه الجرائم البشرية التي تدور وتتدلج تحت مظلة ما سوف يسميها التاريخ بالحرب العالمية الثالثة ، فهو أنها تعتمد في مقدمة ما تعتمد عليه على أن تعيد استثمار الأسماء الراححة في عالم المذاهب والجماعات ، وعلى سبيل المثال فإن حزب الله أراد ولا يزال يريد أن يستأثر لنفسه بهذا الاسم المميز وكأنه صفة لسلوكه ، وكأنه أيضا احتكار للصفة النبيلة ، وكأن الآخرين بالتبعية أو بمفهوم المخالفة ليسوا من حزب الله ، وإنما هم أقرب لأحزاب الشيطان إن لم يكونوا كذلك بالفعل ؛ وقل مثل هذا في تسمية تنظيم الدولة لما استطاع فتحه بدولة الخلافة الإسلامية وكأنه يسد الفراغ الناشئ عن الإلغاء القسري لدولة الخلافة منذ مائة عام .

و قد تطور هذا التوجه المتحيز حتى وصل مرحلة خطيرة فيما سمي بقرارات مؤتمر جروزني التي استحوذت لنفسها زورا (و بغطرسة المال) على الحق في تخصيص وصف أهل السنة والجماعة لمذاهب وجماعات دون أخرى .

مظلة نفي الآخر

وفي علوم العصر الذي نعيشه ، فإن الاسم الذي يطلق على هذه المظلة الانتقائية التي تشمل مثل هذه التوجهات أو التصرفات أو الأفعال هو ببساطة : مظلة نفي الآخر ؛ ومن المفارقة و حسن الحظ أن طبيعة عصرنا الذي نعيشه لا تكاد تعترف بأية جدوى لفكرة "نفي الآخر" ولا تكاد تقر عليها أحدا مهما كان نفوذه المادي في الحياة الهادرة .

و في مقابل هذا فإن تاريخ الحياة العقلية يثبت بكل فخر ما نجحت فيه جماعة المسلمين في الزمن الماضي من تقنين ذكي و تأصيل فقهى تمكن من نفي جزئي لصفة الإسلام عن بعض المذاهب المستحدثة حتى تلك التي لا تزال تحرص حرصا جريئا على نسبة نفسها جزئيا للإسلام (مثل القاديانية وتجلياتها الأحمدية)

كذلك فقد نجحت جماعة المسلمين في نفي الإسلام عن جماعات قد تبدو بطوقسها وأديباتها وكأنها مُستردفة أو رادفة من روادف الإسلام، رغم انتسابها لأديان أخرى (مثل السامرية التي تنتسب لليهودية لكنها للوهلة الأولى في كثير من مظهرياتها تبدو إسلامية) .

ولا يتسع المقام هنا للحديث عن كل هذه الجماعات ، لكننا نكتفي بذكر أن القاديانية مثلا أصبحت تصنف في دول كثيرة بنصوص دستورية وقانونية على أنها فرقة ضالة ، وذلك على الرغم من كل الدعم والتسهيلات الذكية التي قدمتها دولة عظيمة من وزن بريطانيا لهذه الجماعة وأمثالها.

توجهات سلطوية متجنبة

بالمواكبة لهذا ، حدثت درجة قصوى من درجات الهجوم على الآخر بدعاوى وأطروحات تجاوزت الممكن العقلي والعرف الخلقى انتصارا لتوجهات سلطوية متجنبة .

ومن العجيب أن من تصدى لشن معظم هذا الهجوم لم يستند إلى جماعة فقهية أو علمية أو إلى مرجعية كلامية أو فلسفية أو تاريخية ، وإنما صدرت هذه التعبيرات الهجومية الموغلة في العداء على نحو شخصي حريص على أن ينسبها لقاتلها أو المتحرص بها ، وكان هذا شبيها تماما بما يحدث من إيداع النقود في حساب شخصي بدلا من حسابات الهيئات كيما تعود الفائدة والثروة على الأشخاص المتطلعين .

ومن الطريف أن مثل هذه التصريحات والتخرصات التي لا تشرف إنسانا عاديا فضلا عن أن يكون عالما بالدين قد لقيت من الاستهجان العام قدرا منع أي معجب بمضمونها من أن يعبر عن هذا الإعجاب ولو من طرف خفي.

كيف يمكن أن يحدث أي نوع من الاحترام إزاء تصريحات من قبيل القول بأن الوزيرين اللذين صنعا الانقلاب رسولان من الله ؛ أو قول شيخ الصوفيين بأن الصوفية أسسوا حلفا صوفيا مسيحيا لمواجهة ومحاربة الإسلاميين ؛ أو إزاء القول بأن الأوربيين المعاصرين من أهل الفترة ؛ أو أن تأييد الانقلاب كان أخف الضررين : أو إزاء القول بأن الانقلابي حاكم متغلب ؛ وأن الإخوان المسلمين خوارج ؛ وأنه طوبى لمن قتلهم ومن قتلوه !!

انتظار ذروة درامية

في كل هذه الأحوال كانت جماعة المسلمين البسطاء (التي يظنها بعض الساسة غير معنية بالفكر) في حالة عقلية أفضل بكثير من حالة النخبة الضالة المضللة التي تنتسب بيروقراطيا الى مجتمع العلم ، بينما هي تستعذب أن تكون خاضعة لهوى متغلب ، وفهم محدود ، ورؤية قاصرة . وحتى هذه اللحظة ، فإن المراقبين لا يزالون في انتظار وقوع الحدث الدرامي الذي يمثل " النزال " الذي يحدث في المعارك بين طرفين على نحو ما تبلور في معركة العلمين أو تجلى في معركة ستالينجراد .. ، فقد ظل ما يحدث حتى الآن في إطار من الروتينية التي تدفع الطرف المفترى (أو المتكبر بجبروته وتعديه) يعاود شن هجومه باطراد وإلحاح ، فيؤدي أصحاب الأرض المسالمين ، وإن كان هو أيضا يصاب و يخسر في أثناء الهجوم من النيران الصديقة . كذلك فإن هذا الطرف المفترى يخسر أيضا بسبب ردود الفعل الحتمية داخل كيانه هو ، وذلك من قبيل ما يسمى في العلم بالاستهلاك المفرط للطاقة ؛ وهو سلوك يحدث حتى في أثناء عمليات الكيمياء الحيوية داخل جسم الإنسان والحيوان .

مأزق السياسيين الدهريين

وبالإضافة لهذا ، فإن كل صورة من هذه الصور المفترية تحقق الخسائر من خلال أنماط أخرى من قبيل ما ينشأ في داخل مجتمعاتها من الإخلال بالتوازنات البيولوجية والكيميائية ؛ وهي في حقيقة الأمر آثار ذات كلفة سلبية ضخمة تكاد بلا مبالغة تفوق تكلفة الهزائم الحربية . بيد أن السياسيين "الدهريين " الذين يعيشون اللحظة ، ولا يعيشون التاريخ لا يعيرون مثل هذه الحقيقة انتباها كافيا لأنهم غير مشغولين إلا باللحظات التي يعيشونها .

وفي كل هذه الأحوال ، فإن مكاسب الشعوب تصاعدت حتى بلغت الدرجات الكبيرة من أوليات ونويات الحراك الاستراتيجي ، بدءا مما تحقق لها فجأة وعلانية من معرفتها وكشفها للمناققين الداخليين الذين طال انخداع كثير من الجماهير بهم ، و طالعت ثقتهم بما يقولونه ، إلى أن جاءت

اللحظات الفارقة الكاشفة الفارزة ، و تجلت بوضوح حقيقة لم يكن المتقف العادي يتصورها ، وهي أن المنافقين الذين يحملون أسماء إسلامية أو شبهة انتماء لتيار إسلامي هم أشد خطرا على الإسلام من أعدائه .

ونحن نعود بعد كل تأمل لنكتشف أن الحرب العالمية الثالثة لها صفة غير مسبوقه وهي أنها " حرب متخصصة و دقيقة التخصص والتصويب إلى حد مذهل فهي حرب على " الإسلام السني" وليست حربا على غيره أبدا ، ولنكتشف أيضا أن حالات الفرع من هذا الإسلام السني قد وصلت مرحلة من الصرع (و لا نقول الصراع ، والفرق كبير جدا) المرضي ، وهو صرع مرضي متكرر لم يحدث حتى في ذروة الحروب الصليبية .
والنتيجة الملازمة ، أو على الأقل المصاحبة لهذه الحالة ، هي أن علاج الصرع المتكرر أصبح يعطل نمو الأجهزة الارتقائية والوجدانية .

الأوهام الرهابية

امتدت هذه الحرب إلي مرحلة الأوهام امتدادا طريفا، لكنه كان في حقيقته امتدادا رُهابيا من طراز خاص وفريد .

وعلى سبيل المثال ، فانه يمكن تلخيص ما حدث في الاستفتاء البريطاني حول الخروج من الاتحاد الأوربي وصفا دقيقا يعتمد على الفكرة التي صاغتها قوانين نيوتن عن الحركة ، وهكذا فإن ما حدث لم يكن إلا أن مغامرين أقنعوا البريطانيين أن العثمانيين عائدون للتفوق عليهم بالتعاون العثماني مع الالمان ، كما كان الحال في بعض فترات سابقة ، وهكذا فإن المغامرين نجحوا في أن يصيبوا البريطانيين المسنين بالفرع، بينما لم يتأثر الشباب أصحاب المستقبل بنفس الدرجة من رد الفعل.

و بدون أن ندخل في تفاصيل كثيرة تتعلق بتحليل النتائج عمريا وجغرافيا، فإن رد الفعل كان هو القائد ولم يكن الفعل نفسه هو ذلك الرائد ، كما أن الخوف كان هو الدافع وليس الأمل ؛ وأخيرا فقد انتصرت كراهية الآخرين، وانهزم حب الوطن بسبب كراهية الآخرين في نمط غير مسبوق التشخيص من آليات التدافع والتنازع والصراع .

و بعبارة أخرى، فإن ما حدث في الاستفتاء البريطاني (و ما سيحدث شبيها له في أية انتخابات ألمانية أو أوربية تغزوها النزعات اليمينية) يعكس محصولا ضخما من العنصرية المرضية افتقد إلى أي قدر متغلب عليه من الوطنية او العقلانية أو الحب الحقيقي للذات .

الفصل الثالث

لماذا يتأجج الصراع الديني في عصر العولمة

الحضور ثم التسويغ

أبدأ بمثل بعيد بعض الشيء عن الشكل وعن الموضوع ، لكنه ربما يمثل جوهرهما من بعيد ، فعندما احتقلت مصر برفع العلم المصري على العريش في أولي تجليات استعادة أراضيها المحتلة بعد توقيع معاهدة السلام كان الفريق أول عبد المحسن كامل مرتجي قائد القوات البرية و أكبر قائد عسكري ميداني في حرب ١٩٦٧ من كبار المدعوين للاحتفال ، لكنه لم يحضر بهذه الصفة القديمة وإنما بصفته رئيساً منتخبا لمجلس إدارة النادي الأهلي الرياضي أكثر النوادي الرياضية المصرية شعبية وتأثيرا .

في جانب التفسير التاريخي لهذه المصادفة المفتعلة تبرز حقيقتان: الأولى أن القائدين الكبيرين في حرب أكتوبر: القائد العام المشير أحمد إسماعيل، ورئيس الأركان المشير الجمسي (وقد تعاقبا على منصب وزير الحربية) كانا من القادة التاليين مباشرة للفريق مرتجي في قيادة القوات البرية في حرب يونيو ١٩٦٧ ، أما الحقيقة الثانية والأكثر بروزا في تأثيرها المباشر ، فهي أن وزير الدفاع في ذلك اليوم الفريق أول كمال حسن علي نفسه عمل في أثناء خدمته ضابطاً أركان (موازيا: مديرا المكتب) الفريق مرتجي.

هكذا حدث الحضور، وتم تسويغه، ثم تولى التاريخ تحليل التسويغ.

نقفز مباشرة إلى التأمل فيما قد تفرضه المصطلحات السياسية من مفاهيم في مثل هذه الحالة ، حين تشير إلى أن ذلك " الحضور" قد تحقق بصرف النظر عن "التسويغ". فإذا نحن نقلنا هذا المعنى السابق بكليته إلى العلاقات الدولية الحالية حين تصبح مشتبكة أو ملتبهة فإننا قد نُفاجأ بأن الحل الأمثل عند كل دولة أو قوة " للحضور" الفاعل كثيرا ما يبحث عن " تسويغ " آخر يكون أكثر قبولا أو قابلية للتوافق. وهذا على سبيل المثال هو جوهر أزمة سوريا المنكوبة حين طغا عليها الصراع الديني الخفي والمتأجج في الوقت ذاته.

وقد علمنا التاريخ أن أصحاب الدعوات الدينية (والمرجعيات الدينية) يرفعون شعارات السلام ، بينما هم بحكم الكهنوت يؤمنون أيضا وقبلا أن واجبه الأول هو نشر دينهم والانتصار لعقيدتهم وهو هدف يتماس ويتلامس ، بل قد يتلبس ويلتبس بالحرب الصريحة.

الشعبة و الواجب الفولكلوري

ومع الخبرة التاريخية الواسعة التي اكتسبتها جماهير عصر التواصل الاجتماعي في فهم دلالات النصوص السياسية المعلنة ، فإن حديث بعض القيادات السياسية الشيعية في بعض المناطق

عن احترامهم للصحابة الكرام عادة ما يتزامن مع قيام عامة الشيعة بالواجب الفولكلوري المفرط في هجوم بذيء على كبار الصحابة والشيخين وأم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنهم أجمعين. فإذا هدا هجوم العامة من الشيعة ، سرعان ما بدأ الخاصة منهم ينشرون ما هو كفيل باستعادة التأجيل.

لجأت إلى هذا المثل الإسلامي الواضح في مطالعته وتأمله قيل أن أشير مجرد إشارة سريعة الى مدى العنف المسيحي - المسيحي الذي جعل من وثائق التوافق الكهنوتية حبرا متطابرا غير قابل للبقاء، ومثيرا لسخرية الذين يعرفون أن الاختلافات العقيدية واللاهوتية لا تعالج بحفلات الكوكبيل العامة ولا باللقاءات نصف الكهنوتية.

ومن المدهش ان الصحفيين الجادين لا يزالون يجهدون أنفسهم سعيا وراء استكناه دلالات معنوية في مثل هذه اللقاءات المسرحية الضخمة بين أقطاب الممل المسيحية ، فلا يجدون تفسيرا قابلا للتصديق إلا القول بأن مثل هذه اللقاءات هي خطوات جادة في سبيل التوافق الوحيد ، وهو الحرب على ما يرى بعض منظريهم أنه هو العدو المشترك ، و الذي هو الإسلام؛ فإذا نشر الصحفيون مثل هذا الاستنتاج لم يجد قادة الفكر المسيحي بأنفسهم حاجة ولو ضئيلة إلى نفيه ... ذلك أن بقاء الاستنتاج القاسي يضيف عليهم أهمية ، على حين أن نفيه يجلب لهم تشكيكا في ولائهم لدينهم .

تناقض الأسماء و الواقع

وهكذا تتكرس في أذهان العالم صورة العودة إلى التعصب المقيت ، بل ربما العودة إلى الحروب الصليبية. وقد لا تكون نسبة الصواب في مثل هذا الاستنتاج مؤهلة له للبقاء ، لكن الوضعية المنطقية فيه تدعّمه وتسبقه وتستعيده بالحاح.

و واقع الامر أن اللجوء إلى تشخيص كثير من الحالات التي فرضت نفسها على سياق الأخبار بانها ظواهر "إسلاموفوبية" كان في جانب جذري من جوهر التشخيص اعترافا جادا بأثر الظلم الذي أصر الغرب على فرضه على مجموع المسلمين وكياناتهم السياسية (في كل صورها) منذ نهاية الحرب العالمية الأولى ، وهو ظلم تجاوز ما لا يمكن قبوله إلا بصعوبة بالغة على أنه صورة من صور الانتقام من موقف سياسي وعسكري الى نمط فظيع وغير مبرر من الانتقام المتشفي من الأجيال الإسلامية القادمة بلا مبرر .

ومع أن التجربة الإنسانية دفعت ببعض كيانات المسلمين المظلومين إلى تصوير انفسهم قادرين على المضي في بدايات جديدة متحررة من القسوة وأثرها ، فإنهم سرعان ما اكتشفوا حقيقة مرة ، وهي أنهم دفعوا بأنفسهم ومجتمعاتهم في طريق التبعية بخطوات واسعة ؛ ولم يكن مهما لمن تكون التبعية ، فقد كان نموذج أنور خوجة الألباني التابع في توجهاته لمعسكر الاتحاد السوفيتي

موازيا تماما للنموذج الدكتاتوري الأتاتوركي الذي جمع مع ديكتاتوريته سمتين أخريين في الوقت ذاته ، حيث كان غربي التبعية ومناهضا شرسا للهوية في الوقت ذاته ؛ وفي كلتا الحالتين و أمثالهما كانت التبعية تسمى نفسها بأسماء لا تمت لطبيعتها السياسية بصلة ولا مودة ، ونحن لا نزال نرى كوريا الشمالية تنص في اسمها الرسمي على الديمقراطية ، على نحو ما كانت تفعل ألمانيا الشرقية وغيرها من الكيانات الشمولية في عصر الحرب الباردة .

وفي المقابل فإننا نرى أيضا حرص إيران على أن يتضمن اسمها صفة الإسلامية .

الاستيعاب يضاعف الاستعادة

على أن تجربة التبعية شأنها شأن أية تجربة سلبية لا تخلو من عظة، فقد أفادت من مروا بها اضطرازا أو قسرا في تلقينهم ضرورة الخلاص من التبعية المكلفة وغير المربحة ، وفي مثل هذه الأحوال ، فإن الطريق الأمثل للعدول عن التبعية سرعان ما يتجلى في التفكير في الرجوع إلى الهوية ، بادئا منظومة متسلسلة من التدافعات المتسمة بالصراع الديني أو المنتهية إليه ، وقد كان هذا هو الباب الذي انفتح من تلقاء نفسه في عصر العولمة ومع نهاية عصر الاستقطاب الذي ازدهرت على أساسه وبفضله حقبة الحرب الباردة .

وقد اكتشف خبراء السياسة والحرب على حد سواء حقيقة مهمة ، وهي أنه لم يكن من السهل على المجتمعات العائدة إلى الدين أن تتوافق مع الأعداء التقليديين لهذا الدين ، مهما كانت رغبتها في هذا التوافق ، ذلك ان الإحنَ والبغضاء تلعب في تكوين الهويات وصياغتها دورا طبيعيا، إضافة إلى الدورين التاريخي والاستراتيجي ، وهكذا أصبح التناول المباشر للعداوات القائمة بسبب الدين عاملا مؤججا لهذه العداوات ، لأنه ببساطة شديدة يستدعيها ولا يستوعبها ، فاذا حاول استيعابها ضاعف من استعادتها .

لمثل هذا السبب ، فإن منهج العلماء البيولوجيين في دراسة علم الحياة لا يزال يبحث عن روابط التشابه والتوحد ويقدمها في إطار الأصداء المتأثرة بفكرة وحدة الخلق (التي هي منبئة عن وحدة الخالق الأعظم) وتفسيرات ما عرف على أنه مذهب النشوء والارتقاء .

الاختلافات والتأصيل

ونحن معشر أساتذة الطب الممارسين للعلاج والتشخيص لا نجد حين نستقصي الدراسات المعملية أي نوع من الاختلاف في وصف طبيعة الأنسجة والأعضاء عند من يتصدون لهذه المهمة من أساتذة البيولوجيا (وفروعها في علوم الحيوان والنبات والفسولوجيا والأنسجة) سواء كان العالم البيولوجي ممن يؤمنون بنظرية المؤمنين القائلين بالخلق الخاص أو بغيره من المذاهب (بما في ذلك ما يصنفه بعض المتدينين على أنه من قبيل الكفر)، لكننا في مقابل هذا نجد نصوص ومصطلحات الفلسفة القديمة وقد ألفت بظلال كثيفة على فهم علماء الأديان للحقائق المتعلقة بالخلق

والخالق على حد سواء ؛ ومن الحق أن نعترف أن هذه الظلال قادرة على أن تنشئ من التشوهات المنطقية ما لا يزال يسبب كثيرا من الحرج الفلسفي والعلمي للإيمان المسيحي (مثلا) ، وهو حرج يستدعى (مضطرا) القوة التي قد تصل إلي استدعاء الحرب للتغلب عليه .
ولأن الاستثمار الفكري عند الإنسان ارتبط دوما باستحداث الجديد ، لا بالتخلي عن القديم ، فقد كان من الطبيعي أن تتطور كل التنوعات المذهبية إلى خلاف ثم إلى اختلافات تحاول التجذر وتبحث عن التأسيس؛ بنهج مكثف ودائب.

ضيق الكهنوت وسعة الحياة

ويبدو لي من استقراء خبرات الأخيار في الصراع الديني مع الأعيان ، أن الحل الامثل لتجاوز الصراعات الدينية هو ما لجأت إليه خبرة جهاذة الأساتذة في الأزهر منذ أكثر من قرن من الزمان ، حين قررت أن يتأهل دارسو الأديان بدراسات موازية ومتآزرة مع دراساتهم الدينية ، بحيث لا تنغلق عقولهم عند بحثهم في علم الفقه أو أي علم متصل بجوهر الإيمان؛ ومن دون أن أدخل في تفصيلات كثيرة ، فإني سأذكر مثلا صارخا لقدرة هؤلاء الجهاذة من قادة التعليم الأزهرى على تحقيق السعة الفكرية والتسامح العقلي من خلال تطويع النظم التعليمية في المناهج والامتحانات ، يقول هذا المثل إن الحصول على الشهادة العالمية القديمة كان يتطلب الدراسة و الامتحان و النجاح في ١٢ مادة دراسية كان الفقه (على أهميته وخطورته) أحدها ، وكذلك كان أصول الفقه ، أما مادة البلاغة فكانت تعامل على أنها ثلاثة علوم (هي المعاني والبيان والبديع) لا علم واحد ، وذلك من أجل الخروج بدراسة الإسلام من ضيق الكهنوت إلى سعة الحياة .

وليس سرا أن اكتشاف بعض الدوائر الغربية لهذا السر الذي يمكن تسميته سرا فرعيا من الأسرار المكونة لسر الأزهر هو الذي استدعى (في اللاوعي الغربي) تكثيف الحقد على الأزهر بينما لاتزال الدوائر الكهنوتية (حتى فيما بعد ما سمي بإصلاحات مارتين لوثر) عاجزة عن إيجاد نظير له .

الباب الثاني

الخوف من الإسلام

الفصل الرابع

كيف نستوعب الصليبية الجديدة ؟

خوارزمية جديدة

أبدأ منطلقاً من علم اللغة التاريخي بالقول بأن صفة "الصليبية" تحولت في اللغة الإنجليزية لتكون صفة للجوهري من الأمور ، لكن اللفظ لم يفقد معناه الأصلي الذي ينسب الشيء أو يصفه بشكله الصليبي (كالرباط الصليبي الذي كثيراً ما يعاني لاعبو كرة القدم من تمزقه) ، أو الذي يستدعي تسمية تاريخية للحروب التي رفعت راية الصليب لتستهض همّة شعوب أو قبائل أوربا لحرب الشرق المسلم ، بما فيه من أغلبية مسلمة وأقليات مسيحية متحالفة معها .

و حين صدرت الكلمة عن الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن في وصفه المنفعل للحرب على من تسببوا في ١١ سبتمبر ، فقد اضطرت الإدارة الأمريكية بعدها مباشرة للإشارة إلى أنه قصد " المعنوي " لا " التاريخي " ؛ و منذ ذلك الحين أصبحت الأدبيات السياسية الأمريكية في غاية الحذر تجاه مثل هذه الألفاظ بمعانيها الموحية والمستدعية لتراث بغض من تاريخ حروب وصراعات لا يجادل مفكر منصف (مهما كان انتماءه) في أنها كرست التخلف القيمي ، و عوقت التقدم الإنساني لسنوات طويلة .

لكن روح الانتقام العدائي التي اجتاحت بعض الأوساط الأمريكية في أعقاب ١١ سبتمبر سرعان ما أكدت على فكرة الصليبية الجديدة ، باعتبارها معادلاً موضوعياً لما نسميه في العلم التجريبي "نموذجاً خوارزمياً" كفيلاً بالجمع بين الانتصارين المعنوي والمادي على ما يمكن اعتباره بمثابة انتصارات بازغة لجماعات أو مجتمعات إسلامية هنا أو هناك .

إرهاصات

وقد تعددت الأمثلة على روح هذا النموذج الخوارزمي الجديد ، على الرغم من أن المستهدف فيه لم يرتبط برباط عملي أو عضوي ؛ وفي هذا النسق العدائي انتظمت مجموعة من التصرفات العدائية غير المبررة كانت لبعضها بمثابة إرهاصات سابقة حتى على أحداث ١١ سبتمبر .

وعلى سبيل المثال ، فإنه لما فازت شركة موانئ دبي بمناقصة لإدارة ميناء أمريكي بارز قامت الدنيا في الأوساط الأمريكية بسبب هذا الفوز ولم تقعد إلا بعد إلغاء أثر هذا الفوز دون أن تعوض الشركة الفائزة بما تستحق عن جهدها التحضيري الذي حقق الفوز من دون أن يستمتع به .

وقد استدعى هذا إلى الأذهان حربا ضروسا شنت قبلها بسنوات على بنك الاعتماد والتجارة الذي كان قد حقق في انتشار خدماته المصرفية نجاحات غير مسبوقه ، وحشدت لتلك الحرب مجموعة من الدعاوى المضخمة حول مخالفات مزعومة للبنك في مجالات أخرى مقترنة بالحديث المكرر عن الخلاف حول مدى كفاءة الباكستانيين (المسلمين) في شئون المصارف ... الخ هذه المزاعم المشوبة بالعنصرية الجهرية ؛

وفي ذلك الوقت المبكر اضطر الشيخ زايد بن سلطان حاكم الإمارات إلى تحمل الإسهام الأكبر من الخسائر والتبعات بالإضافة إلى إنفاذ قاس لسياسات الإفلاس والتفليس (من قبيل قسمة الغرماء) كعقاب غير عادل لكل من وثق بالمسلمين ؛ وبالطبع فقد كانت كثرة منهم من المنتمين أيضا للإسلام .

التحفظ العظيم

وعلى سعيد ثان ، فإن التاريخ يسجل أن التعليقات الغربية كانت قد التزمت أكبر قدر من "التحفظ العظيم" بدلا من "الرصد الأمين" تجاه تجربة مهاتير محمد في التنمية الاقتصادية والاجتماعية في ماليزيا ، لكنها لم تكن على أية حال سعيدة بهذه التجربة ؛ وبذلت الآليات الأمريكية جهودها الحثيثة وغير المنظورة لإفشال هذه التجربة عبر وسائل مباشرة وغير مباشرة ؛ حتى وصلت الذروة فيما اتخذته من إجراءات كقيلة بإنهاء حلم النور كلها ؛ عبر تفصيلات كثيرة .

وأذكر يوما أنني كتبت بكل صراحة مقالا تحت عنوان " هل النمو الإسلامي هو المستهدف في ماليزيا " ؟

سحب بساط الثراء

وفي ميدان ثالث ، فوجئت الأوساط الاقتصادية بحروب إعلامية (أقرب ما تكون إلى الأسلوب الدعائي الأكثر شيوعا في الطراز الإعلامي القديم) تنبني مزاعمها على أطراف أو قبسات مما يبدو وكأنه صدى لحقائق علمية جديدة يبالغ مرددوها في تصوير أثرها دون ضبط للتصورات أو التوقعات ، و ذلك لغرض في نفس يعقوب كما يقول التعبير الجميل ؛ وكان من أبرز تجليات هذه الفكرة : الحديثان المضخمان عن البترول الصخري و عن استخدام الإيثانول بديلا للبترول ؛ ولم يكن لهذين الحديثين الصاعقين إلا غرض واحد هو التمهيد للعسف الشديد بآليات تسعير البترول ، على الرغم من أن أسعار البترول لا تزال دون المستويات العادلة بمنطق السوق .

ومع تنامي هذه الحرب الخفية وامتدادها إلى روسيا بالتبعية بدأت الأوساط الغربية تسريب الحقيقة المطمورة ، وهي أنه أن الأوان لسحب بساط الثراء من تحت أقدام دول إسلامية بدأت فيها موجات الوعي الذكي بالمصلحة الاقتصادية ، مع أن هذه الموجات تنامت لأسباب تنموية ومحلية قيل أن تكون أسبابا دينية أو إسلامية.

القافلة و قطع الطريق

وفي ميدان رابع ، لم يشهد التاريخ الإنساني انقلابا على الذات على نحو ما حدث للتراث السياسي الأمريكي على يد الرئيس أوباما وإدارته في فترته الرئاسية الثانية ؛ فقد جاء سلوك الرئيس أوباما وجون كيري والبنجاجون تجاه تطورات الأمور في منطقة الربيع العربي أدنى من كل التوقعات والآمال بالنسبة لسلوك دولة مؤثرة (فما بالك إذا كانت هي الدولة الأولى). ومع أن السياق السياسي قد يغفر على مضض اللجوء مرة (أو اثنتين) إلى البرجماتية في تناول دولة ما (ولا نقول دولة عظمى) لقضية من القضايا فإن هذا السياق السياسي (من باب حفاظه على الاتساق مع ذاته) لا يستسيغ تكرار اللجوء المتكرر إلى البرجماتية (بتناقضاتها المتوقعة) في كل خطوة ؛ وإلا تحول السياق السياسي للدولة من أسلوب القافلة إلى قطع الطريق ؛ أو من التجارة إلى الغصب .

وهكذا ، فإن هذا التحول في السياق السياسي الذي وصل حد "الانقلاب" انتهى بأمريكا اليوم في نهاية عهد المناور المحترف الرئيس أوباما وقد وجدت سياساتها في سوريا متورطة في كل الجرائم الإنسانية بحكم عامل جوهرى واحد هو خيانتها لثقة من وضعوا ثقتهم التامة (أو على الأقل : أملهم) فيها .

ومع أن هذا التورط بدا محققا (بطريقة غير مباشرة وغير منكورة) لرغبات صليبية دفينية ، فإن كشف الوقائع العلنية المتتالية لهذا التورط (وبصفة خاصة بفضل سطوة الإعلام الجديد في الوصول إلى التفاصيل الدقيقة) قد مثل خسارة فادحة لأسلوب ودعاوي الأمريكيين عبر سبعين عاما منذ بدأ النفوذ الأمريكي في تنفيذ أهدافه من خلال استناده إلى الصورة النموذجية التي رسمها لنفسه : معنيا بالإنسانية ، مناديا بالديموقراطية ، نصيرا لحقوق الإنسان ... الخ ، لكن الرئيس أوباما وإدارته الثانية انتهجوا النهج المناقض صراحة لكل هذا التاريخ واعترفوا بهذا ، مرة من بعد أخرى ، صراحة وتلميحا .

التريث تجاه التربص

و قد تواكب هذا مع ما حدث في ميدان خامس، فقد كان الإخراج السياسي للاتفاق النووي مع إيران نوعا من إعلان الحرب على الإسلام بسفور ؛ وذلك على الرغم من أن الإدارة الأمريكية لم يكن يعوزها من التقنيات المسرحية ما تجعل به هذا الاتفاق يبدو به وكأنه تقارب أمريكي إسلامي

؛ لكن الصليبية الجديدة / الدفينة كانت أحرص ما تكون على أن تظهر الاتفاق في إطار أنه معاد للإسلام وليس متوافقا معه .

ومع أنه كان من اليسير مثلا الإشارة المخاتلة إلى أن إيران بعد باكستان هي ثاني دولة إسلامية تدخل الميدان الخ ، فإن العكس هو ما حدث بالضبط ، فحين ضبط الخليجيون أعصابهم وأمسكوا ألسنتهم لساعات عقب الإعلان عن توقيع الاتفاق كانت الإدارة الأمريكية هي نفسها التي بدأت الحديث عن أن الاتفاق ليس موجها ضد دول الخليج العربي ، وكأنها حريصة على الإسراع باستئارة من أراد التريث تجاه التربص ..

ومن دون الدخول في التفاصيل فقد ظل هذا الأسلوب الاستثاري هو السمة الغالبة على معالجة الشكوك الخليجية ، حتى وصلت الأمور تباعا إلى التصريح باستعداد أمريكا لتسليح الخليج ضد معقبات الاتفاق الأمريكي الإيراني!! ثم باستعدادها للمشاركة (بمقابل مادي كبير) في الدفاع عن الخليج ، وهو الخطاب الذي تطورت مفرداته على نحو فظيع و مزر في تصريحات وتهويمات طاقم الرئيس دونالد ترمب .

تجربة ديموقراطية إسلامية

وفي ميدان سادس ، فإنه مع كل هذه التطورات كان الوضع القلق والمقلق للانقلاب العسكري المصري كفيلا بأن يذكر العالم الإسلامي في كل صباح بخباتة نية الأمريكيين تجاه الإسلام ؛ و تجاه بلاد المسلمين ؛ وتجاه أية تجربة إسلامية ديموقراطية أو أية تجربة ديموقراطية إسلامية ، و قد حاولت الإدارة الأمريكية في البداية أن تتجاهل أصداء هذه الصورة معتمدة على أثر الزمن وعلى تطبيع الأمر الواقع على نحو ما وصفوه في مناقشاتهم مع كاتب هذه السطور ، لكن الرياح أتت بما لا تشتهي السفن وأخذت الصورة المتناقضة والقلقة الهشة تترسخ يوما بعد يوم .

و قد ساعد الانقلاب بنفسه على ترسيخ صورته الحائرة و صورة الخطاب الأمريكي الملبس من زاويتين : زاوية فخره ببنوته لأمريكا وزواجه الكاثوليكي منها على حد تعبير وزير خارجية مصري ، وناحية هجوم أذرعته الإعلامية من أن لآخر على أمريكا بلهجة لا تخفى على المتابع الذكي مرارة السؤال الطبيعي : كيف ينتقدنا إعلامكم ونحن حلفاء ، بل إننا صنعاء؟ .

جاذبية الإسلام السياسي

وفي تطور سابع ، فإن الرياح أتت بما لا يشتهي البحار الأمريكي مرة أخرى حين فشل الانقلاب التركي وبدا التورط الأمريكي مريبا ومزعجا ثم بدت الحسرة الأمريكية سافرة و مثيرة للسخرية ، كما بدت بعض الانفعالات الأوربية عصبية وعصية على التمرير .

ثم إن الرياح وفي تطور ثامن أتت أيضا بما لا يشتهي مساعدو القبطان الأمريكي ، حين أسفرت نتائج الانتخابات في المغرب ومن قبلها الأردن و غيرهما عن ميل شعبي طبيعي وأصيل

إلى كل ما ينتسب إلى الإسلام السياسي بما يمتلكه من عون فطري ، وتاريخ ممتد ، ومنطقية جاذبة، و تجربة مجتهدة .

ومن سوء حظ المتعصبين (الأمريكيين وغير الأمريكيين من الأصوليين الجدد) أنهم أصبحوا لا يجتهدون في تجديد مرونتهم الفكرية تجاه ما يكتشفونه من أخطاء و ما يكتسبونه من خبرات .

صليبية غير مبررة

لكل هذه الأسباب التي كشفت عنها الخبرات المتوالية ، لم يعد هناك شك في أن الإنسانية أصبحت مهددة بنمط جديد من الصليبية غير المبررة التي تستدعي من مفكري العالم ومتفقيه وفتات متوالية من أجل تمحيص دوافعها ، وتهذيب مراميها ، لو أنها كانت حقا ذات جدوى في مسار الإنسانية المعذبة والمعذبة ، لكنها في حقيقة الأمر لا تعدو أن تكون اجترارا لأفكار قديمة انتهى عصرها منذ زمن بعيد بل وقامت النهضة الحديثة على أنقاضها ولولا هذا القيام على الأنقاض القديمة ما كان للحضارة معناها المعاصر المؤمن بالتسامح واحترام الجذور.

ولهذا فإننا نعود لنحذر مما أشرنا إليه في البداية من أن روح الانتقام العدائي التي اجتاحت بعض الأوساط الأمريكية في أعقاب ١١ سبتمبر لا تزال تؤكد على فكرة الصليبية الجديدة ، باعتبارها معادلا موضوعيا لما نسميه في العلم التجريبي "نموذجا خوارزميا" كفيلا بالجمع بين الانتصارين المعنوي والمادي على ما يمكن اعتباره بمثابة انتصارات بازغة لجماعات أو مجتمعات إسلامية مارقة هنا أو هناك .

ومع أن الانتصار على المارقين قد يحقق لذة فإنه كعنصر وحيد لا يمكن أن يبني دولة ولا علاقات ولا مستقبلا ولا حضارة .

الفصل الخامس

الذين يعادون الديمقراطية خوفا من الإسلام

الأكاذيب الثابتة

يتعجب كثير من عامة الناس من موقف بعض السياسيين الذين يرفضون الديمقراطية إذا جاءت بالإسلاميين على حين يتغزلون بها إذا لم تأت بهم ، و يزداد هيامهم بها إذا هي نجحت في إقصادهم مواقع أو إقصائهم عن مقاعد كانت بحوزتهم من انتخابات سابقة . هذا هو جوهر المفارقة ببساطة شديدة.

وقد أصبح هذا الموقف المتناقض من كثرة تكراره هنا وهناك بمثابة " عادة متعودة " تكاد تريد أن ترقى لصورة الحقيقة الثابتة لولا أن الحقائق بطبعها المنطقي والفلسفي لا ترحب باندرج الافتراءات معها ، وإنما تفرّد لها فضاء خاصا تحت مسمى " الممارسات السائدة " ، وهو مسمى مختلف بالطبع عن مسمى " الأكاذيب الثابتة " .

ولما كان المغرمون بالتنظير و التأسيس لمضطرين إلى الهروب من المأزقين الفكري والمنطقي اللذين يتولدان من إصرارهم على مواجهة ومعاداة الحقيقة بالالتفاف المبرر حولها ، فقد أرهق كثير من هؤلاء أنفسهم حتى وصلوا إلى بعض الملاذات الاصطناعية : وأشهرها ما ذهب بعضهم إليه من قول جذاب ، لكنه غير قابل للحياة ، وهو القول السائد عند من انخدعوا للعسكر وانحبسوا في خندقه معبرا به عن افتراض شاذ يعلي من سطوة العلمانية في هيراركية النظم السياسية لتكون فوق الديمقراطية .

معاداة الفكرة الإسلامية

وهكذا أصبحت الديمقراطية في نظر هؤلاء خادما مطيعا ومذعنا للعلمانية وإلا فلا ؛ أو بمفهوم آخر أصبحت الديمقراطية مجرد وسيلة لتوصيل العلمانية أو العلمانيين للسلطة فحسب ؛ ومع أن ألقاب علوم السياسة وممارساتها لا تسمح بهذا الشطط المغرض ، فإنهم يحتالون لتميريه وتسويغه بأقوال من قبيل : نحن نريد دولة علمانية ويردفون مثل هذا القول مباشرة باسم المذيع أو المذيع (يا ... فلانة أو يا فلان) وفلان هنا كما أشرنا هو مذيع أو مذيع متواطئ مع الفكرة علي غير أساس ، ولهذا يذكره المتفلسف أو صاحب الغرض أو المرض بالتواطؤ ، لأن مثل هذا التقرير لا يستقيم في المطلق، وإنما يتطلب التوافق على التواطؤ من أجل تمرير ما لا يجوز، وبالطبع تتعدد شخصيات المذيع أو المذيع التي تمرر مثل هذه الجملة من دون أن تسأل السؤال

السياسي والديموقراطي الجوهري الذي يقول : حتى لو أن أغلب الشعب لا يريد هذه الدولة التي تفصلونها على مقاسكم لتعادوا بها الفكرة الإسلامية التي تقنع وجدان الشعب وضميره ؟ .

رغبات الشعب

بيد أن هذا المخرج "البهلواني" أو الملاذ الاصطناعي المعتمد على ترديد بيغاتي لعبارة " نريد دولة علمانية" لم يراوح مكانه في مواجهة المأزق الحقيقي الذي فرض نفسه على الذين يريدون أن ينالوا من السياسة وجاقتها وسطوتها دون سعي للجماهير ، وتفهم لحق الجماهير ، ولخبرة هذه الجماهير بقضاياها ، وفضلا عن هذا فإنهم يثبتون على أنفسهم أنهم يريدون من السياسة وجاقتها بدون أي جهد لتحقيق (ولو جزئي) لرغبات الشعب المعنوية والمادية على حد سواء .
تمادى هذا التوجه المتغلغل باستخفاف في بعض منابر الرأي في التلفزيون و القضائيات ، دون أن يجد من يتصدى له أو يوقفه عند حدود العقل ؛ وقد رأى بعض الذين يعرفون الحقيقة أن إهمال الجدل مع هذا التوجه هو الأولى ، بينما رأى آخرون أن النقاش في حد ذاته قد يعطي لهذا التيار الشاذ شرعية أو اعترافا ، بينما رأت جماعة ثالثة أن من المفيد (في المنطق البرجماتي) ترك مثل هؤلاء يشغبون على الإسلاميين بهذا اللغظ . وهو موقف مؤسف وإن كان مسموحا به ومتعارفا عليه في ديناميات الصراعات المشابهة .

المتناقضات الناسفة للمصادقية

لكن الأمر الذي أصبح يمثل خطورة مستقبلية على الوعي السياسي للنخبة نفسها (ولمن هم قادمون أو مشرفون على أن ينضموا للنخبة) هو وصول الأمر (في كثير من الحالات) ببعض رموز التيار المعادي للهوية الإسلامية إلى ارتكاب متناقضات ناسفة لمصادقته ؛ و قد تعددت هذه المتناقضات لتشمل على سبيل المثال:

- توظيف الكنيسة القبطية في السياسة بدرجة كثيفة و ملحّة ، بما يكرس فكرة العامة عن أن العلمانية ليست إلا العداة للإسلام وهي نتيجة خُطرة لم يأبه بها معادو الإسلام هؤلاء، لأنهم لا يمانعون في أن يحرقوا الأخضر واليابس سترا لفشلهم .
- إذلال الأزهر في شخص قياداته وعلمائه و تتبع رأيه لرأي السلطة الغاشمة في ارتداء ثوب الباطل المقيت والدفاع الغبي عنه بما يهز مصداقيته لعشرات السنوات القادمة .
- السعي إلى مسخ الهوية المجتمعية من خلال قرارات تستهدف توهين المظاهر اليومية للحياة الروحية من قبيل إغلاق المساجد و منع الأذان و قتل الحياء وإشاعة الفاحشة ومحاربة الحجاب و مناكفة النقاب والتنغيص على الملثحين.
- العمل المحموم على هز كل ما هو ممكن من العقائد الإسلامية تحت مسمى الدعوة إلى تجديد الخطاب الديني .

- المسارعة إلى توثيق العلاقات السياسية مع أي نظام معاد للإسلام ونفض اليد من أية علاقات حيوية بأية دولة تحترم المسلمين .

معادة جوهـر الديمقراطية

وفي اتجاه آخر أكثر انحيازاً ضد الديمقراطية نفسها وأكثر بعداً عن المنطق الحاكم للصراع السياسي ، فإن هؤلاء الذين يعادون الديمقراطية كراهية في منتجها الإسلامي لم يمانعوا في تبني آراء معادية تماماً لجوهر الديمقراطية من قبيل :

- القول بعدم جاهزية الشعب للديموقراطية .
- معاودة الحديث عن حرمان بسطاء التعليم من حق التصويت بدعوى سهولة انخداعهم وقصر التصويت على حاملي الشهادات ، وذلك على الرغم من معرفتهم بتدني مستوى الشهادات الدراسية ؛ وبافتقاد العلاقة بين الوعي السياسي وهذه الشهادات الورقية .
- محاولة تعديل النظام الانتخابي بأية طريقة غير مشروعة بما يحول دون وصول الإسلاميين .

- اعتقال وخطف المرشحين الإسلاميين التقليديين قبيل الانتخابات لخلق المأزق المبكر أمامهم ، وتحقيق غياب الإسلاميين من المنبع .
- التعسف في قبول ترشيح ذوي الشيعيات الطاغية بحجج واهية قد تصل إلى التحذير من فقدان الأمن والسلم العام .
- اختلاق موانع قانونية أو تنظيمية عامة تمنع استمرار رموز المرشحين الإسلاميين في كل مرحلة من مراحل العملية الانتخابية.
- اللجوء إلى التزوير والتزييف والتدخل في إرادة الجماهير بطرق مؤثمة من أجل إقصاء الإسلاميين عن حقهم الديمقراطي والقانوني والإنساني .
- ثم يصل الأمر إلى العسف بالعملية الديمقراطية كلها عن طريق الانقلاب العسكري والتواطؤ من أجله .

تجديد الحرب

على مدى أربع أو خمس سنوات خاض المعادون للفكرة الإسلامية في مصر حرباً ضروساً استخدموا فيها كل الوسائل الممكنة وغير الممكنة ؛ المشروعة وغير المشروعة من دون أن يحققوا حداً أدنى من النجاح المشجع لهم على الاستمرار في سعيهم الدؤوب ؛ ومع هذا فإنهم لا يزالون مصممين على تجديد هذه الحرب ، رغم افتقارهم لمبشرات النجاح ، وإن كان غيهم النفسي يصور لهم أن هناك أملاً بنجاح ترهاتهم في نهاية النفق .

- على أن الجانب المطمئن في مستقبل هذه الإشكالية ، هو أن خبرات التاريخ تكشف لهؤلاء ، بما لا يقبل الجدل ، أن جهودهم لن تكفل بالنجاح في هذا العصر الأمثل لاستطراق الوعي وازدهار الانتماء ؛ فأمامهم تجارب ناطقة بأن معاداة النهج الإسلامي ليست إلا حرثا في البحر :
- فهي هي تركيا تعود لصدارة الشرق على الرغم من شوقها المتكرر أو الملح إلى علاقة عضوية طبيعية مع كيان الاتحاد الأوربي .
 - وها هي ماليزيا تواصل تألقها الهادئ المبني على النظام المستقر ، بعد أن جربت ألقها الصاروخي مع الإسلامي المبدع مهاتير محمد .
 - وها هي تونس تبذل في صناعة توافق أصبح مؤرقا بشدة لكل من مولوا محاولات الاستقطاب الدافعة إلى القتل على الهوية .
 - وها هي نيجيريا تؤكد ذاتيتها السنوية والسلمية ، رغم كل التآمر الخفي عليها .

الطبيعة لا تسمح بإقصاء الإسلام

- ولا تتوقف دروس التاريخ السياسي عند هذا الحد من التنبيه ، لكنها تتواصل لتنبئ المعادين للإسلام والحاقدين على صحوته ، والمتخوفين من نهضته إلى حقيقة بازغة ، وهي أن طبيعة العصر الذي نعيشه لن تسمح بإقصاء الإسلام حتى لو اجتمع العالم كله على هذا الهدف :
- فهي هي الدول الإسلامية التي قهرها الاتحاد السوفيتي بكل ما أمكنه من افتراء الجبروت تستعيد بثقة وتدرج طريقها المعهود إلى المعبود الأعظم جل جلاله .
 - وها هي ألبانيا وكوسوفو إضافة إلى البوسنة تنجو من معقبات التدمير المخطط والقتل الممنهج وتبدأ معتمدة على نفسها طرقا تنموية مهما كانت بطيئة الخطى ، فإنها واثقة و لا تتفي الإسلام ولا تحاربه .
 - وهاهم ثوار ليبيا يواجهون بإيمانهم أشرار الغرب الذين جاءوا طامعين في ثروتها وفي إعادة استعبادها بخلف سيء لأسوأ سلف مع معزوفة غربية (وأمركية تتردد في الخلفية على غير استحياء) مثنية على قبضة القذافي ، و كأن لوكيربي بكل ما وصفه الغرب من إجرامها لم تكن إلا صفقة لتمرير أموال الشعب الليبي إلى الغرب تحت دعوى التعويضات .
 - وهاهم السنة في لبنان يصمدون صمودا أسطوريا في وجه استفزازات مريبة و ينتصرون عليها بضبط متناه للنفس .
 - وهاهم أهل السنة في اليمن يواجهون التآمر بصدور عارية مؤمنة بالنصر .
 - و في إيران نفسها ، يكتب أهل السنة أروع ملاحم الاستشهاد من أجل الدفاع عن الحق في أقصى ظروف التجاهل المتعمد والتعاطف المقتقد .

الفصل السادس

أمريكا فيما بعد أردوغان

حاز الإعجاب ولم يحظ بالقبول

لا يختلف اثنان على حقيقة أن السياسة الأمريكية بصرف النظر عن الرؤساء والساسة استماتت ولا تزال تستميت في الإطاحة بأردوغان ، وأنها أنفقت كثيرا من مالها ومن ماء وجهها في هذا السبيل ؛ وأنها لجأت ولا تزال تلجأ إلى كل الوسائل الشيطانية الممكن أو المحتمل أن تساعد على ذلك الهدف .

و حين ينشر الرئيس أوباما مذكراته فستعبر مضامين هذه المذكرات عن حقيقة مهمة ؛ وهي إن مكالمات الرئيس أوباما الطويلة واتصالاته المتعددة مع الزعيم و رئيس الوزراء أردوغان (الذي أصبح رئيسا منتخبا للدولة) لم تكن عن حب لأردوغان أو إعجاب به كما تردد في ذلك الوقت المبكر ؛ وإنما كانت بحثا مستميتا عن منفذ للتأمر على رجل حاز الإعجاب الأمريكي ؛ ولم يحز في الوقت ذاته القبول الأمريكي أو القبول الرئاسي الأمريكي ؛ وهي صيغة كيميائية نادرة ، لكنها أصبحت متاحة في السياسة الدولية المعاصرة .

ومن السهل منطقياً أن نتعجب مما تضمنته الفقرة السابقة من أحكام شبه قاطعة وقابلة أيضا للوجود على الرغم من أن أحدا لا ينفى أن هذه الأحكام تصور واقعا ملتبسا بطريقة أكثر تدبرا وتبها في الوقت ذاته ، لولا ما تميزت به من العناية بدقة الألفاظ المعبرة عن حالات نفسية التي هي متباينة تماما ، حتى وإن بدت في بعض الأحيان مترادفة ؛ لكن الحوار الجاد (وربما الحاد في جديته) وحده هو أفضل ما يكفل تشخيصا أدق لما تمثله الحالة التركبية الحالية أو الراهنة من تحد مستثير و خاص في استثارته للفهم الأمريكي المتأني ، والمتعمق للسياسات والتوازنات الدولية .

حساسية أمريكا تجاه تاريخها

في هذا الإطار فإننا نحترم بكل تأكيد من يجابهنا بالقول بأن الفرق بين واشنطن وأنقرة واسع وشاسع وسيظل كذلك لفترة من الزمن ، وهو فرق كفيل بالألا يسمح لأمريكا بالقلق من أنقرة ؛ وهذا صحيح ؛ لكن للموضوع جانبا آخر يتعلق بالحساسية الأمريكية المفرطة تجاه أي نقص في التكوين الأمريكي ؛ وأي نكوص أو انحدار في التاريخ الأمريكي ؛ ومن سوء الحظ أن أمريكا تشعر شعورا مضاعفا بهذين العنصرين تجاه تركيا الراهنة مهما أخفت مشاعرها و أدت مظاهرها .

وربما أن لها الحق في ذلك ، فأمریکا لا تزال تشعر بأن افتقادها للإسلام الصاعد (رغم كل الحرب والقهر والتمييز) يضيع منها الإفادة من مقوماته الخلقية البناءة للدولة الليبرالية ؛ وهي حين

تدرس الجهاد فتشوه معانيه ، وهي تفعل هذا خوفا منه ومن أهله وليس خوفا عليهم ؛ وهي تعترف بأنها طورت من نظام الوقف الإسلامي لكنها ترى ما اقتبسته منه ومن نظام الصدقات أقل مما تتمناه مما حدث وتحقق بفضل تاريخ الوقف التركي على سبيل المثال .

ليست قلقة من أنقرة لكنها قلقة جدا من إسطنبول

وعلى صعيد آخر ، فإن أمريكا التي لم تنس هزيمتها على شاطئ طرابلس ، وهي الهزيمة التي يترجمها نشيد أمريكي لا يزال يعزف حتى يومنا هذا ؛ لا تنسى أيضا أنها كانت تدفع ما يقرب من معنى الجزية للدولة العثمانية . وهكذا يمكن لي القول بكل وضوح إنه إذا كانت أمريكا ليست قلقة من أنقرة فإنها قلقة وقلقة جدا من إسطنبول .

المستقبل الذي تريده أمريكا لتركيا

إذا وجدنا هذا المبرر الخفي قد اتضح على هذا النحو ، فهل يمكن لنا أن نقفز بفكرنا إلى سؤال عملي أو إجرائي يسأل عما تتصوره أمريكا من مستقبل (تحبه العقلية الاستراتيجية الأمريكية) لتركيا ، بعد أن تكون قد نجحت فيما هي مستميتة فيه من عمل ذي محاور متعددة ومتوالية ومتوازية بل ومتناقضة على إسقاط أردوغان؟؟

- هل تريد أمريكا لتركيا مستقبلا أسود كهذا الذي أوجده في العراق ؟
- هل تريد أمريكا ان تفرض نجيب الله أفغانيا سوفيتيا فيقاومه الشعب التركي العظيم ؟
- هل تريد أمريكا أن تستنسخ ناصرا يسب اسرائيل ويحقق لها مالم يحققه اليهود أنفسهم و يسب أمريكا ويسيدها في الوقت نفسه على أصدقائه و أعدائه على حد سواء ؟
- هل تريد أمريكا أن تدخل تركيا في حالة اللا استقرار الحكوماتي والحزبي التي تتميز بها إيطاليا ، إلى أن يظهر برلسكوني تركي بعد عقدين من الزمان ؟
- هل تريد أمريكا أن تكرر تجارب بنوشيه وأمثاله وهي تتظاهر بالبراءة وتكرر الشجب ؟

هكذا استقال هيجل

واقع الأمر أن الولايات المتحدة تعلم بالورقة والقلم والحاسبة أنها أصبحت أعجز من أن تصل إلى أية نتيجة من النتائج الخمس السابقة ؛ و أن معطياتها الحالية لا تزيد عن أن تخلق مظهرا سلطويا نسناسيا مشوها مستدعيا للسخرية كذلك الذي اجتهد البنيتاجون حتى صنعه في القاهرة ثم سرعان ما انسحب صانعه وزير الدفاع الأمريكي من الحياة السياسية حين تأكد أن ما صنعه يمثل كارثة أمريكية على أمريكا نفسها بكل المقاييس ، وأنه غير قادر على صيانة أو إصلاح ما أوجده ؛ من شبه جهاز سلطوي أفضل من أن يؤدي أي وظيفة مطلوبة منه بحكم الاستراتيجية أو التاريخ

، وهكذا فضل ذلك الوزير المنشئ للانقلاب العسكري المصري أن ينهي علاقته بالسلطة بدلا من أن يتولى علاج ورعاية ابنه الوليد المعوق ذهنيا وفسولوجيا ؛ وهكذا استقال هيجل بعد شهور قليلة من ولادته لانقلاب عسكري مشوه كان و أصبح وأضحى وصار كفيلا بإسقاط كل ورقات التوت عن كل عناصر الإمبريالية الأمريكية تجاه الإسلام ؛ ومن ثم إظهار كل ما كان مخفيا أو خفيا من قبح سترته الرتوش.

كان التفكير الأمريكي بعد استقالة هيجل أن ما تم على يده أو ما تم له في القاهرة يمكن أن تعالج عيوبه ليظهر في صورة أكثر فعالية ونضجا واكتمالا في أنقرة ، لكن رعاية الله حفظت بلدا جادا في عبادته لربه وفي حبه لوطنه .

وهكذا خرج الوليد الثاني ميتا.

المجاملة الأوروبية غير المبررة

ومع أن أمريكا فهمت كل هذا بكل وضوح ، فإنها بدأت تحسج وتدفع ببعض ساسة أوربا إلى الحشجة ؛ ومع أن الحشجة بطبيعتها غير قادرة على الإبانة ، فإن موضوعها المعلن لا يمكن إخفاؤه ، كما أن نصوصها المبتسرة لا يصعب تفسيرها ؛ وهكذا بدأت ملامح التبجح في الحديث عن الإشفاق على العسكريين المحتجزين للتحقيق لأنهم هم الذين يتمتعون بأوثق العلاقات مع الغرب ؛ وتعاضم الحديث رويدا رويدا عما سمي بحقوقهم وكأن الغرب يقول ما لم يقله محارب من قبل : احترموا الجوايسيس وأكرمواهم !!

وبدلا من أن تنتبه أوربا لما يمكن أن يصادفها من مصاعب ومتاعب إذا نجحت أمريكا في تحقيق اي انهيار حاد في تركيا ، فإنها أثرت مجاملة أمريكا في محاولة الحط من قيمة إنجازات أردوغان ؛ ومن العجيب أن تسمع من رئيس المفوضية الأوروبية طريقته في الالتواء بالحقيقة مطالبيا العاشق بأن يثبت للمعشوقة أنها تحبه بدلا من أن يثبت لها أنه يحبها !! نعم هكذا تحدث رئيس المفوضية الأوروبية في لقاء تليفزيوني هناك ؛ وهو حديث لا يصدر إلا عن سياسي محنك غير موفق ، لأنه أسكرته الثروة والسلطة والسطوة دون حساب للآخرين .

- هل تريد ألمانيا مثلا لتركيا مصيرا مثل مصير السودان أم مثل مصير مصر ؟
- وهل تظن ألمانيا أنها ستكون بمعزل عن أية انهيارات تحققها أمريكا في تركيا ؟

أوربا خسرت بغياب العثمانيين

من المؤسف أن تسمع من الأوربيين ما يدل على أنهم يعتقدون أن لا أحد يفكر بجديفة ما دامت الولايات المتحدة الأمريكية قد بنت استراتيجيات طويلة المدى ؛ ومن الطريف هنا ونحن نعود بالذاكرة في الزمن القريب أن الاستراتيجيات البريطانية في القرن التاسع عشر أو في نصفه الأول على الأقل كان قد جعلت من أولوياتها الحفاظ على كيان الدولة العثمانية على نحو ما كان عليه ،

فلما رجحت كفة الحاقدين على فكرة الدولة الإسلامية انخرطت أوربا كلها في أفضع المعارك الحربية على مدى التاريخ ، ولم تختف للإسلام دولته (أو دوله المتعددة) التي عاشت قرونا متصلة .

سببى لتركيا بعد أردوغان كثير جدا

لكن هذا لا يمنعنا من أن نجيب بطريقتنا على عنوان المقال في فقرة سريعة فنقول إنه سببى لتركيا بعد أردوغان كثير جدا مما كان لأردوغان وجماعته الفضل الأوفى فيه :

- دولة عصرية قوية
- روح إنسانية عالية
- ثقة بالنفس صادقة
- ديموقراطية محسوبة متجذرة
- حياة حزبية سليمة
- جيش مدرب مؤهل جاد
- انتماء إسلامي جاد
- توجه اجتماعي سام
- مدرسة دبلوماسية نشطة
- علاقات أوربية متنشعبة
- خطة تنموية تلقائية التمويل ذاتية الدفع
- بنية أساسية بازغة
- مؤسسات عامة باذخة
- تأمين صحي مظلل
- تعليم قومي متميز
- أخلاق سياسية رفيعة
- خبرة مضادة للعسكرة

ومع هذا فإن تركيا مع أردوغان أكثر نجاحا وحماسا وإسلاما وأخلاقا منها بدونه .

الباب الثالث

المقاربة غير التقليدية للإرهاب

الفصل السابع

نحو آليات ذكية في مواجهة الإرهاب

التأمين الانفعالي

بيدي كثيرون العجب من المبالغات التي فرضتها توجهات الأمريكيين فيما يتصل بسياسات التأمين والتحوط والاشتباه فيما بعد حادث ١١ سبتمبر، وبخاصة أن هذه الإجراءات والبروتوكولات أصبحت تثير الانطباع المتجدد بأنها تترك نهر الاحتمالات الخطرة والكامنة واسعا وتركز غاية التركيز على جدول صغير متفرع من نهر الاحتمالات.

ولا يقف الأمر عند هذا التركيز المكاني غير المتناسق ، لكنه يمتد ليضفي على معظم سياسات التأمين (إن لم يكن كلها) ملمحا انفعاليا بدلا من أن يصبغها بما يعطيها طابعا استثنائيا واستباقيا حقيقيا وليس إجراء تحفظيا.

يكاد الباحث المتأمل الذي تعامل تعاملًا مباشرًا مع المرض (في نفسه أو في المقربين إليه) أن يلحظ أن السياسة الأمريكية تكاد تقصر تفكيرها وآلياتها على المجابهة المستمرة والدؤوية للاحتمالات المتوقعة هنا وهناك ، باعتبار هذه الاحتمالات ظواهر مرضية وبالحرص على إنكار أن بعضها ظواهر فسيولوجية.

والأمر في هذا شبيهه بأبوين من ذوي التعليم القاصر والخبرة المحدودة يظنان أن من واجبهما أن يوقفا زيادة طول ابنهما وهو في السادسة عشرة لأنه أصبح أطول من شقيقه الذي يكبره بست سنوات!! لأن هذا يتعارض في رأيهما أو في إدراكهما مع المنطق الذي يؤمنان به وهو خشيتهما من أن يصبح الأصغر متشجعا على هزيمة الأكبر (أو التجني عليه) بكل ما تحمله هذه الهزيمة من اضطراب في موازين القوى.

الخوف من تكرار ١١ سبتمبر

في مقابل هذا الهلع الأمريكي الذي تعبر عنه بصدق واقتدار نبرات أصوات مذيعات الفضائيات الأمريكية في تعاملهن مع كل مادة إخبارية آناء الليل وأطراف النهار ، فإن الفلاح الأمريكي يبتسم وهو يروي لأبنائه أنه كان أطول من شقيقه الأكبر وأنهما كانا أقصر من الشقيق الأصغر من كليهما على الرغم من أن ثلاثتهم أشقاء.

يعبر أساتذة الطب المتمرسون عن هذه الحالة العقلية بأن أصحابها لا يفهمون الفسيولوجيا ، ومن الطريف الذي لا يمكنني التصريح به أن بعض المهن والدراسات القريبة جدا من الطب لا تفهم (في مجملها) الفسيولوجيا ولا تدرك حدودها على نحو ما هو الحال في السياسة الأمريكية الراهنة.

أقفز من هذا التبسيط النظري إلى التأمل على سبيل المثال في الإجراءات التي فرضت على الطائرات المدنية ووسائل تأمين الرحلات الجوية والمطارات ، فأذكر ملاحظة يكاد كل القراء يشاركونني الرأي فيها، وهي أن كل هذه الإجراءات قامت على فرضية أن يتكرر حادث ١١ سبتمبر بحذافيره ، وبلغ الخوف من تكرار هذا الحادث حدا تضاعفت معه السيطرة المطلقة لهذا الحادث على التصميم والتشغيل ، لدرجة لا نصفها بأنها مرضية فحسب، وإنما نصفها بما هي أولى به من التشخيص القاطع بأنها سرطانية.

وخذ على سبيل المثال أو حتى الخيال ما روي عن قريب من باب المفارقة من أن الكابتن القائد لإحدى الرحلات ذهب لدورة المياه فاشتبكت مساعدته مع إحدى المضيفات في خلاف بسيط ارتفعت فيه الأصوات فلما خرج الكابتن من دورة المياه ووجد الأصوات المرتفعة أثر أن يتعامل معها بدون أن يزعج مساعدته التي كان يتصور أنها في مقعدها في الكابينة ، ومن ثم فإنه أغلق باب الكابينة بظهر يده بطريقة تلقائية سريعة!! ولم يمر بخاطره أن مساعدته خارجها مشتبكة مع المضيفة!!

وهكذا عاشت الطائرة عشر دقائق من الرعب المتنامي إلى أن تمكن الكابتن من تحطيم باب الكابينة والدخول إليها قبيل دقيقة أو دقيقتين من تنفيذ الأوامر العسكرية القاضية بتحطيم هذه الطائرة بمن فيها في الجو من باب الاحتياط من كوارث أكبر يتوقعها العقل من طائرة هائمة لا ترد على نداءات غرف المراقبة الجوية ولا تستجيب لأي تنبيه ولا يعرف مصير قائدها ومساعدته، ومع هذا كله ، فإن ما يترامى من أصوات الاشتباك من بعيد يشير إلى أن هناك معركة قائمة على متن (ولا نقول أرض) الطائرة.

الأولوية لشعور أمريكا بالأمان

لا يخرج أمر معظم الاستراتيجيات الأمريكية الراهنة عن مضمون هذا الإطار الدرامي الذي أصبح يصور لنفسه أن الدنيا خلقت لتحيط بأمريكا فحسب، وأن من واجب الأحياء في هذه الدنيا أن يلتزموا بما يضمن شعور الولايات المتحدة الأمريكية بالأمان الذي يكفل لها ألا تفاجئها الأحداث بأي صورة مشابهة لما أربك استراتيجياتها من قبيل وقائع جاءت على غير توقع كامل من الأمريكيين فأربكت حساباتهم في العقود الأربعة الماضية ، ومن ثم فقد أصبحت هناك أهداف استراتيجية لا تعلن صراحة ولكنها تتطلب من إدارات العمليات في كل الأجهزة السيادية الأمريكية

أن عمل باستمرار و دأب من أجل ألا تتكرر المفاجآت التي فوجئت بها الولايات المتحدة مخالفة لتوقعات التحليل والاستقراء و ببساطة شديدة فقد أصبح مطلوباً أن تعيش الاستراتيجية المؤسسة في سلام :

- فلا تشن دولة منهكة ودائرة في الفضاء السوفييتي البطيء حرباً مفاجئة من أجل تحرير أرضها ، حتى لو كان هذا هو سبيلها الوحيد لاستعادة الكرامة والأرض والتنمية.
- ولا تتجج جماعات جهادية مسلحة في القضاء على نظام انقلابي شيوعي وسقوط الاتحاد السوفييتي مع هذا الانقلاب العميل ، حتى لو أذيع أن هذا قد تم برضا أو مساعدة أمريكا نفسها. بل وأنه كان في صالحها أو لصالحها.
- ولا تتدلع انتفاضة أطفال بريئة تعبر عن أقصى درجات القهر التي يستشعرها أبناء شعب وجدوا العالم يعض الطرف عن قوم جاءوا ليحتلوا أرضه ويطردوه منها بناء على أساطير غير منطقية.
- ولا يتسع نطاق ثروات مشروعة عبرت بأرقى ما هو ممكن عن تطلعات شريفة نحو الحق والحرية والسلام .
- ولا يكون رد الفعل الشعبي تجاه الانقلابات العسكرية المصنوعة أبياً ، و صلباً ومقاوماً على هذا النحو الذي جسدهته المجابهة الشعبية لانقلابات مصر وتركيا ومقدونيا.

مقاربة التنبؤ الاستراتيجي

لهذا كله و مع الإيمان بما يفرضه العلم من حقائقه فإننا نحسب أن أمريكا بمؤسساتها العقلية والسياسية أصبحت الآن ، أكثر من أي وقت مضى ، في حاجة ماسة إلى إعادة صياغة جادة وجديدة لمقاربات التنبؤ الاستراتيجي والسياسي المستندة إلى تجليات حديثة في علوم النفس والاجتماع ، ومدى ما يمكن لهذه التجليات أن تسهم به في إعادة صياغة الأسس الحاكمة للعلاقات والسياسات الدولية .

وعلى سبيل المثال السريع جدا فإن كفاءة استصدار القرارات العسكرية تطورت بفضل أجهزة المحمول الشخصية ، بأكثر مما تطورت بفضل الارتقاء في فعالية الذخيرة أو كفاءة الصاروخ بل إن الجندي البسيط أصبح بفضل أجهزة جي بي إس متفوقا في التفكير والمبادرة على أمير المساحين ورسامي الخرائط ومقتفي الأثر.

وليس هناك شك في أن أمريكا قادرة تماما على أن تنجز هذا التحول الاستراتيجي عبر استلهاهم ذكي ومتعمق لتجربتيها السابقتين في أعقاب الحربين العالميتين الأولى والثانية ، ذلك أن الحرب

العالمية الثالثة التي بدأتها أمريكا ضد الإسلام باتت تشي بوضوح بأنها رغم محموليتها (وانتشارها وتعدد بؤرها وتحالفاتها ومركباتها) لن تنتهي إلي القضاء على الإسلام ولا توهينه ، بل على العكس من ذلك ، فإنها تمهد له ولنشره وفهمه ولتقديره .

العمر الافتراضي للعملاء المحليين

على صعيد آخر ، فإن هذه الحرب الراهنة أثبتت بكل وضوح أن ثمن استمرار التحالف الغربي في هذه الحرب الخبيثة مكلف الى أبعد الحدود ، كما أن العمر الافتراضي للعملاء المحليين (أو من باب السخرية : الوطنيين) يتناقص مع الزمن بمنحنى انحداري حاد ، و أن كفاءاتهم المضخمة التي يصنعها الاعلام الكاذب قد أصبحت محل نفي مستتب ، وليست محل شك فحسب، وأن استنساخ الرؤساء عبد الناصر وحافظ ومعمر وعلي لم يعد مجديا، فضلا عن أن يكون ممكنا رغم ضخامة الإنفاق على الدعاية والتلميع و رغم كفاءة التكنولوجيات الحديثة .

الوجاهة مع العطب

وهكذا فإن العطب قد أصاب كل عناصر بناء هذه الاستراتيجيات الخبيثة على الرغم من استبقاء الاستراتيجية لوجاهة أهدافها وبريق منتوجاتها المرجوة أو المتمناة .
وإذا كان لي من ذكر مثل بسيط للتحويل المطلوب أو الممكن في الاستراتيجية ، فإنني أقترح على فرنسا أن تشرع فوراً وفي خلال ثلاثة أشهر في بناء مائة مسجد بسيط ، لكنه مريح للأعصاب ، بحيث يكون (بالإضافة إلى وظيفته الأصلية كمصلى) مثابة لأولئك المهمشين و المأزومين من تدفق مشكلات الحياة و مفاجأتها القاسية أو الحادة ، و بحيث يجدون فيه العلاج النفسي البسيط الذي هو كفيل كما علمنا التاريخ بأن يخرج بمتلقيه من مزاج سوداوي إلى حالة طبيعية على نحو ما تحس الطبقات البرجوازية بحاجتها إلى الإجازات العادية وغير العادية .
إذا نجحنا (عبر سنة أو سنتين) بخطوات من مثل هذه الخطوة في إزالة نسبة عالية من التوتر والاستقطاب وما يترتب عليهما من هذه الحوادث الفجائية غير المبررة ، فإننا نكون قد لجأنا إلى علاج ناجح وناجح ، فضلا عن أنه قليل التكلفة، لكن الأهم هو أننا نكون بسبيلنا إلى الانتصار على المرض الذي بدونا و كأننا منهزمون أمامه وسعداء بتكرار الانهزام أمامه دون استيعاب لدروس الفسيولوجيا والباثولوجيا .

الفصل الثامن

ما بين تضخيم الإرهاب وتفتيت الآخر

رواج الافتعال

تتأزر الانطباعات المتولدة عن أية حادثة إرهابية عايرة مع الانطباعات المترسبة من أحداث الإرهاب المتتالية التي سبقتها ، لتكشف بكل وضوح عن أن حوادث الإرهاب تحولت بالتدريج لتكون أحد الأسواق للرأجة للافتعال على نحو مواز لما حدث من قبل ، حين كان الإرهاب نفسه هو الفعل الجديد على ساحة الأحداث والأخبار والبحوث ؛ أما الآن فإن الافتعال يعيد إنتاج الفعل في أسلوب يزري بالحقائق الساطعة وبفنون التمثيل والمحاكاة من أجل أن ينجح الاستثمار فيه ؛ بناء على ما استقر في دراسات الجدوى من أن سوقه منتعشة ، وتسويقه مضمون .

وها هم أصحاب المصالح المباشرة في تكوين الانطباعات الذهنية يجتهدون في تقديم قرابين متعددة تدعم الصور الانطباعية المشوهة لأعدائهم من أجل خلق وتدعيم الصورة التي يريدون تثبيتها عن هؤلاء الفرقاء في الذهنية الغربية ، وهي الصورة التي أصبحت بمثابة الملاذ الآمن والسلاح المنجز من أجل إقناع الغربيين المصابين بالإسلاموفوبيا بالحاجة إلى وجود طراز من السلاطين غير المنتخبين في السلطة ، وتأمين الحاجة الى هذا الوجود مهما تكلف من دعم عربي أو إقليمي يتضارب مع القيم الإنسانية ، بل و يتنافى أيضا مع الحسابات الاستثمارية في الأحوال الطبيعية .

منذ مرحلة مبكرة قدر لي أن أكتب وأتحدث واصفا البدايات الأولى لظاهرة الاستثمار في الإرهاب التي بدأ عدد من طغاة العسكر العرب الجدد يلجؤون إليها بكثافة .

والآن و بعد سنوات معدودة من الصراع الاجتماعي غير المتكافئ ، أصبحت هذه الظاهرة تتحدث عن نفسها بوضوح زاعق ، بل إن أصحابها من البغاة باتوا يجاهرون بجدواها ، لأنهم لا يملكون غيرها ، وكأنهم ذلك الحانوتي الذي ورث المهنة عن أبيه عن جده ، وقد قال له أصدقائه ألا تفكر في تغيير مهنتك الباعثة على التشاؤم ، فأجابهم بأن نشأته لم تؤهله لغيرها من المهن ، إلا أن يكون حفارا للقبور في السر !!

صناعة العالم الموازي

هكذا يتحدث أبرز أعضاء طائفة الانقلابيين العرب الذين يتصورون بل ويصورون أن ارتداءهم البدلة العسكرية بمثابة المعادل الموضوعي لممارسة قهر شعوبهم برفع شعارات رنانة من قبيل الحفاظ على الدولة المركزية!! في الوقت الذي يتواطون فيه على التنازل عن الأرض

والسيادة رافعين شعارات مناقضة تماما لما يفعلون من قبيل شعار سلفهم القائل بأنه لا صوت يعلو على صوت المعركة.

في العالم الموازي ، فإنه يصعب على أي إنسان مهتم بالعمل العام أو بالسياسات العامة ، أن يتصور أن يكون لهذا المنطق الهلامي حظ ما من البقاء مع ما أصابه العقل الإنساني من التطور ، لكن نموذج الانضباط الظاهري في كوريا الشمالية يبدو وكأنه يصف مثل هذه الحقيقة المنطقية صفعات ظاهرة الأثر مهما كانت قوتها ضعيفة ، وكذلك يفعل الشبق العربي بما التزم به من التمويل السخي للتأمر طويل المدى ، لكن الأمر في صناعة هذا العالم الموازي لا يتوقف عند النموذج والتمويل فحسب ، وإنما تتمثل المشكلة الأكثر تأثيرا في أنه يجد ترحيبا فعليا ومستترا من الكيان الرهيب المعروف باسم " المؤسسة " التي تتحكم في السياسات الأمريكية، واضعة تصب أعينها نهجها المؤلف في الحفاظ على فكرة إبقاء الآخرين مشغولين بالضعف وضعفاء بالانشغال .

جاذبية روح التفطيت

وجدت هذه الاستراتيجية في أعوامها الأخيرة ضالتها المفقودة في أن توظف الخوف الأوربي من الإرهاب في خلق خلافات أوربية - أوربية (كما هو الحال في الموقف من توطين اللاجئين) تؤدي بل وأدت في نهاية المطاف إلى تغليب و انتصار التوجه نحو روح التفطيت، ومن العجيب الذي لا يمكن إدراكه إلا بتصوير متأن يبدعه كاتب مسرحي موهوب أن البريكست أو خروج بريطانيا من الاتحاد الأوربي كان نتيجة حتمية (وإن كانت قد جاءت بالتداعي المتسلسل) لموقف البرلمان البريطاني المفاجئ الذي احتفى به الرئيس أوباما من أن يؤدي واجب الإنسانية في حماية الشعب السوري ، وهو موقف دفع إلى ترجيح التصويت فيه ما عرف سرا من تصويت الكره غير المبرر وغير المعلن لانتصارات الربيع العربي .

وقد جاء هذا التداعي بما هو معروف من التوجهات الأمريكية الخفية نحو الآخرين مهما كان إخلاصهم للأمريكيين ، ومن المذهل أننا لا نكاد نجد في أدبيات السياسة العالمية ما يوازي واحدا في المائة مما نجده في أدبيات السياسة الخارجية الأمريكية من حرص دائم على تغذية كل ما يعزز من فرضيات الانتعاش المتجدد في نزاع الأقليات العرقية والدينية، وفي تأجيج ميول الأطراف إلى الانفصال ، بل إننا نكاد نظن أن الأمريكي في سياسته الخارجية معني في المقام الأول والأخير بتوظيف الأسلحة (أو السكاكين) الانفصالية في كل مكان ، من أجل دعاوى الانفصال والاستقلال والخروج من الوحدة والأحلاف والتحالفات.

ثقافة المجتمعات المتجزئة

ومع أن المثل الواضح لمعاناة دولة جنوب السودان (المنفصلة بالحاح إمبريالي متسربل بمزاعم الشكوى من الاضطهاد الديني) ، أصبح يجأ بنفسه الآن ويجهر بمعاناته في كل جزئية من جزئيات

التنمية الغائبة والحياة المستعصية في هذه الدولة السودانية المصطنعة ، فإن سعادة بعض الأمريكيين البالغة باستقلال الجنوب عن السودان لا تزال حتى الآن تعبر عن نشوة مبالغ فيها ، حتى إنها تكاد توازي سعادتهم التقليدية (والمفهومة) بحرب الاستقلال الأمريكية. ومن الجدير بالإشارة السريعة ، أن الترتيبات السرية أو غير المعلنة لإنجاز انفصال مماثل في أرض النوبة المصرية تجري على قدم وساق بتواطؤ غير مستغرب من سلطات الانقلاب. وقل مثل هذا عما يتناثر من أخبار الدعوة إلى الفيدرالية في سوريا والعراق ، واضعا في حسابك ما اكتشفته خبرة الباحثين من أن كلمة "الفيدرالية" في القاموس السياسي الأمريكي الخفي لا تعني نوعا من "الاتحاد" وإنما تعني "التقسيم".

في كل هذه الحالات التي نراها كل يوم ظاهرة دون حاجة إلى التلخيص والحصص ، فإن الاستثمار في الإرهاب تم تفسيره ليكون هو البديل الأكثر ضمانا لتغذية دعاوى التجزئة المستجيبة لجوهر السياسة الأمريكية التي جعلت ذروة أهدافها السامية نشر ثقافة التجزئة والمجتمعات المتجزئة والدول المستحدثة بالتجزئة في كل مكان تبدو فيه أية ظاهرة (مهما كانت خافتة) ، داعية لمثل هذه التوجهات الانفصالية التي يسهل تأصيلها تاريخيا على نحو ما يسهل تبريرها إرهابيا ، وذلك من خلال حوادث مصطنعة يجعلها الإعلام زاعقة الدلالة على ترجيح الانفصال كحل نموذجي للتعامل الأمني مع الإرهاب . وكما أن السلطات المحلية المفقدة إلى الشرعية أصبحت تجد في الزعم بمكافحة الإرهاب طاقة القدر المساعدة لها على اكتساب نوع ما أو قدر ما من الشرعية، فإن المؤسسة الأمريكية الخفية تجيد استثمار الإرهاب كتميمة تاريخية مساعدة لها على تدمير كل طموح غير أمريكي للائتلاف أو التحالف بعيدا عن نفوذ واشنطن.

الأمريكان يرون تصورهم للعالم حتميا

لم يعد سرا ولا خافيا أن كل الحوارات العربية الأوربية قد أصيب بالشلل المتعمد نتيجة الانسياق الاضطراري لحكومات أوربا إلى تبني سياسات علاج الإسلاموفوبيا التي أنتجتها معامل امريكا ومصانعها ومراكزها البحثية.

وقد وصل الأمر في هذا التوجه المنحاز إلى حد أن كيانات المجتمع الدولي نفسها أصبحت اليوم مطالبة بطريقة غير مباشرة بأن تتبني رؤية وحيدة في سياساتها الدولية، هي رؤية الخارجية الأمريكية لما ينبغي أن يكون عليه مستقبل العالم، ومع أن الاقتصاديات الكبيرة والمتنامية في الصين واليابان و أوروبا وتركيا وجنوب شرق آسيا أبدت تبرمها مرة بعد أخرى من هذه الضغوط الأمريكية ، وبخاصة في موضوع تنظيم الدولة فقد بات المجتمع الدولي اليوم على يقين من الأمم المتحدة التي تأسست منذ سبعين عاما أصبحت بين نارين:

- نار الاستجابة للولايات المتحدة الأمريكية في إلغاء وجودها بإضعاف أدوارها الإغائية والتأديبية والرادعة والتحكيمية والمانة للاعتداء والمحاربة للعنصرية. والاكْتفاء بدور مظهري كامل يَدشن المؤتمرات ويعقد الندوات ، مستهدفا زيادة مساحات الاختلاف وعدم التوافق ، ومؤكدا على كل ما يحول أي اختلاف عابر إلى تناقض جذري متأصل.
 - نار فقدان التمويل الأمريكي لنشاط المنظمة الدولية ووجودها إذا ما صممت قيادة المنظمة على لعب دور نزيه او حتى لعب دور محايد. وتكاد رأس الذئب الطائر التي تتمثل بوضوح فيما يرويه التاريخ المعاصر عن معاناة منظمة اليونسكو طيلة عقدين كاملين من الزمان من التعتن الأمريكي الذي وصل إلى الانسحاب من دفع حصة أمريكا في تمويل المنظمة كتعبير عن عدم الرضا الأمريكي عن تجليات روح النزاهة والاستقلال والمثالية في تصرفات مدير اليونسكو أحمد مختار أمبو.
- وقد بلغ التملل الأمريكي حدودا غير مقبولة من التستر وراء ذرائع مختلفة وغير حقيقية من قبيل توجيه الاتهام بسوء الادارة المالية وهو الزعم الذي لم يكن متسقا مع استمرار التعسف في معاملة المنظمة حتى بعد انتهاء فترة ذلك المدير المتميز .
- ومع هذا ، فان تجربة اليونسكو نفسها كفيلة بأن تعطي الساسة الأمريكيين في المستقبل القريب نموذجا واضحا لرد الفعل العكسي الذي يتولد نتيجة الممارسات المتعطسة للأمريكيين تجاه سجايا العقائد الأخرى .

الكاثوليكي أرحم من الأمريكي

ولست أدب سراً حين أخص ما يعبر به الآن رجال الطبقة المتوسطة العريضة من الساسة الأفارقة عن مشاعرهم تجاه المؤسسات الدينية المسيحية (وبعض هؤلاء بالطبع مسيحيون) ، لكن هؤلاء (بمن فيهم من مسلمين ومسيحيين وأصحاب ديانات محلية) يقولون بوضوح إن الكاثوليك المشهورين بالسطوة الكولونالية يعدون رحماء رفاء إذا ما قورنوا باي بروتستانتيين مرتبطين بأية صورة من الصور بالأمريكيين ، فقد لاحظ هؤلاء الساسة أن الخط العريض للوجود التبشيري الأمريكي خط استثماري في المقام الأول والأخير ، وهو خط لا يعني بالتبشير بالمسيحية قدر ما يعني بالتبشير بالأمركة عالميا ومحليا وبخاصة أنه يبشر بوجود الخلاص في التقويت أو بلفظ أدق "التجزئة " أيا ما كان اسمها : استقلالا او انفصالا أو فيدرالية .

ولهذا السبب ينصح الساسة الأفارقة بعضهم البعض بتجنب الحوار مع السفارات الأمريكية إلا في مشكلات الجوع والمرض بعيدا عن السياسة والانتماء. ومن الطريف أن الأمريكيين أصبحوا مدركين لهذه الحقيقة التي سنتفاهم بالطبع مع تخفيض إدارة الرئيس ترمب للمعونات الخارجية إلى أدنى الحدود.

الفصل التاسع

هل حان أوان رحيل بشار الأسد؟

القصف الإعلامي

لا شك في أن الضربة الأمريكية المحدودة لمطار الشعيرات أيقظت العالم على إمكانية استعادة الأمل في الخلاص من بشار، ومن عائلة الأسد، ومن سطوة العلويين، ومن نفوذ إيران، ومن غطرسة روسيا؛ لكن الأقلام المدربة والشخصيات المفوهة سارعت كما هي عادة النظم الشمولية العتيقة إلى توهين هذا الأمل توهينا وصل بتوظيف الاستخدام المحترف لفكرة المتتابعات المنطقية انتهاء إلى تصعيب تحقق الأمل إلى حد الاستحالة.

وتفاوتت حظوظ المستهدفات الخمسة التي ذكرناها من هذا القصف الإعلامي المكثف الذي استكان بالسعادة وطمأنينة لفكرة استطالة الصراع واستحالة إنهائه بعد أكثر من ست سنوات من الكفاح الشعبي الصادق الذي لم يتوان عن التضحية والفداء في أحلك اللحظات. وربما كان من واجبا تجاه أنفسنا أن نتدبر في الأسباب التي أدت إلى منح الأسد هذه الأعمار المتتالية ولا نقول فرص الإنقاذ الناجعة.

غياب الملاذ الآمن

يتمثل السبب الأول في عناد بشار نفسه وقدرته على إقناع نفسه بالعناد؛ ومع أن ميراثه لهذه السمة التي ورثها من والده ظاهر للعيان، فإن هناك عوامل موضوعية وتاريخية عديدة دفعت ببشار إلى هذا العناد:

- منها مثلا غياب الملاذ الآمن في ظل كثرة العداوات المترسخة مع من كانوا بمثابة الحلفاء الطبيعيين له.
- ومنها أيضا غياب الأفق المشجع على أي موقع بديل في ظل المزايا الخيالية بل الخرافية التي يتمتع بها نظام تترس بأقصى ما يمكن لنظام أن يتمترس به من سياسات القهر والسيطرة، مستفيدا من خلاصات تجارب الرؤساء عبد الناصر ومعمار وصادق، إضافة لتجارب الأب المؤسس نفسه.

إحساس بشار الطفولي

و يتمثل السبب الثاني في نمو عناد الأسد الابن في إحساس بشار الطفولي بالانتصار الحاسم حين كانت الممارسات والتقاليد الدبلوماسية تمنحه في الظاهر ما يفهمه العقل السياسي الطفولي على أنه انتصارات حاسمة أو مؤكدة، بينما هي لا تعدو أن تكون ذهولا عميقا انتاب الكثيرين من محاوريه (أو الموفدين إليه لإنقاذه) من أن يكون هناك من لا يزال يفكر بطريقة بشار في اعتبار نفسه مركز الكون (السوري) ومحط آمال ذلك الشعب المحب له الولهان به رغم قتله

له واستنصاله ! مع الامتتان الواجب تجاه ما يصدره هو نفسه عن إخلاص الشعب له بأرقام باهرة في الاستفتاء عليه رئيسا بالإجماع ، ومع هذا فإنه هو نفسه في المقطع نفسه يشير إلى مئات الألوف من المعارضين !! .

التضخم مع التصلب

وفي هذا الصدد ، فإنه يمكن لأي قارئ صبور أن يتأمل في قدر المغالطات والتشوهات والافتراءات التي يحفل بها خطاب بشار السياسي في محاورته لوفد الجامعة العربية الذي ضم رئيس الوزراء القطري و وزير الخارجية السابق ومعه أيضا الأمين العام للجامعة د. نبيل العربي [قبل أن تحل به لعنة التحول للانتماء الصريح للثورة المضادة عقب وقوع الانقلاب العسكري المصري] ففي هذا الحوار الذي نشره إعلامي بارز في كتاب ضخّم كل الدلائل الطبية على الأنا المخدوعة بالتضخم ؛ والعقل المبتلى بالتصلب ؛ و القلب المليء بالحقد ، وكلها كما نعلم عوامل مشجعة على نشأة العناد والتشبث به واعتباره ثباتا على المبدأ وإيمانا لا يقبل إلا الحفاظ عليه .

قرار رئاسي

يتمثل السبب الثالث في انتعاش العناد في أداء بشار في ضخامة مساحة الاختيار التي استحوذ عليها الرئيس أوباما لنفسه فيما يخص الملف السوري ؛ ثم في القرار الذي نشأ في هذه المساحة ؛ وأثره المباشر وغير المباشر ، فعلى حين كانت الظواهر والجواهر توحى بضرورة تخلي أمريكا عن بشار ، فإن الرئيس أوباما وقف وحده ضد هذا التوجه .

وقد ناقشنا الأسباب الكثيرة التي دفعت الرئيس أوباما إلى هذا الاختيار غير المعهود في القرارات الرئيسية الأمريكية، وهي أسباب عديدة كفيّلة بتسويغ فهم موقفه الانكماشى الجامد ؛ وهو موقف صب في مصلحة زعيم روسي كان قد بدأ يعاني من مظاهر أفول الزعامة، فإذا بالرئيس أوباما يهديها له على طبقين متتابعين :

- طبق أوكراني فاتح للشهية.
- ثم طبق روسي كفيل بالوصول إلى حد التخمة .

استراتيجية خادمة للزعامة الروسية

وبلغة كرة القدم ، فإن بوتين قد حقق الانتصار بسبب توقف الرئيس أوباما عن التهديف والهجوم والمانورة والكر و الفر وميله إلى التراخي في أداء المباراة في الملعب ، مع اعتماده على جون كيري كحارس مرمى ضعيف اللياقة ومتدهور الأداء ، بل ومضطرب الميول السياسية .

لكن انتصار بوتن جاء لصالح بشار بأكثر مما جاء لصالح بوتن نفسه وذلك بسبب قرعة توزيع المجموعات المتنافسة؛ مما نشأ عنه صعود فريق ضعيف هو بشار لمكانة متقدمة لم يكن أحد يتوقعها له في مسار تصفيات الأدوار المتتالية ، قبل الوصول للدور نصف النهائي فالنهائي.

إعلاء قيمة عناد بشار الأسد

- مع كل هذه الديناميات الكفيلة بتعميق العناد والحاجة إليه ، كانت هناك مجموعة من الأسباب الثانوية التي كفلت لبشار مناخا مشجعا على التمسك بالعناد نخص سبعة منها بالذكر :
- فقد أصبح عناد بشار مثلا أعلى للانقلاب المصري وللمتد الحفري في ليبيا وللاحتلال الحوثي في اليمن بكل ما يقتضيه المثل الأعلى من الثبات والصمود وضرب المثل في تحقيق السطوة و إطالة البقاء .
 - مدت الأيدي الإعلامية المحترفة المعروفة بتعدد الولاءات يدها لبشار بالعون الدعائي مقابل المال مدعمة فكرته التي تسيطر على كل شمولي من أن كل الذم قابلة للشراء .
 - بدأت مؤسسات الربح والخسارة في المجتمع الغربي تتعامل مع بشار على أنه منجم لا بد أن تسارع إليه ببعض المتطلبات لتعترف من الأموال المتاحة لديه .
 - اندفعت بعض الأجهزة الأمنية العربية للإفادة من المكتسبات المخبرانية السورية التي أجادت تسويق نفسها في ظل انتعاش معروف للهواجس المتخوفة على الدوام من كل حراك سياسي شعبي أو مغامرة عسكرية مهندسة أمريكيا أو روسيا ومتمتعة بالتغذية الأمريكية او الروسية .
 - صب وجود تنظيم الدولة الإسلامية في مصلحة بشار؛ وليس من الكياسة أن يضيع الوقت في تحري سبب هذا التحالف بينما النتائج قاطعة الدلالة .
 - دفعت بعض الحماقات الكردية في تركيا والعراق مع بعض التخطيطات السياسية الغربية التقليدية بالقضية الكردية لتكون على غير مصلحتها داعم لبقاء بشار .
 - و أخيرا ، فإن تنامي بعض الحقد الغربي على نجاحات أردوغان قفز ليحدث أثرا بعيد المدى في موازين الصراع، وهو أثر يمكن وصفه بلغة الفيزيكا في أنه جاء ليغير قيم الحدود الثابتة والمتغيرة في المعادلات كلها .

عداء النهضة التركية أصبح عاملا معوقا

هكذا جاء عداء أردوغان والرغبة في تعويقه (وهو العامل الفرعي السابع) ليطغى على منظومة العقل الأمريكي والغربي في تعامله مع هذه الحالة من أزمة إقليمية بدأت وهي في غاية المحدودية ثم تعاض شرها لتصوغ حربا عالمية ثالثة انتهت تقريبا بلجوء قادة أوربا العقلانيين إلى الفاتيكان في محاولة أخيرة لتوظيف الميتافيزيكا لصالحهم في المواجهة الواسعة للإسلام

والمسلمين ، وهي المواجهة الحادة التي جلبوها لأنفسهم بموقفهم المتخاذل من قسوة اللاديموقراطية على الديموقراطية في سوريا ومصر وليبيا تحت دعوى زائفة وملفقة (ومدهلزة) من الانتصار لقيم المسيحية على قيم الإسلام ، رافعين الشعار المقولب والمنمط و المنمق الخاص بمكافحة الإرهاب .

جاءت الضربة الأمريكية أخيرا في وقتها المطلوب لتكشف الغطاء عن كثير من الأكاذيب الجاهزة "المعلبة" التي صادفت روجا أتاح للرئيس أوباما أن يخرج من البيت الأبيض بأيد لم ترتد أبدا قفازات الجراح ولو على سبيل إنقاذ الإنسانية المعذبة .

و بضربة الرئيس ترمب عادت الولايات المتحدة الأمريكية جزئيا أو على سبيل العينة إلى ميدان تعمدت أن تغيب عنه لتمرار سياسة الحرب القذرة من خلال الانقلابات العسكرية الناجحة أو الفاشلة على حد سواء ، وليس معنى هذا أنها ستكف عن حروب الدهاليز ، لكن معناه أنها لن تكتفي بها ولن تستعيب بها عن احتمال المواجهة المفتوحة للفكر في ميدان الواقع.

المعادلة المربكة لاستراتيجية أمريكا

يتحدث المحللون عن صعود الصورة الإعلامية والذهنية للرئيس ، وعن صعود الدولار ، لكن الأهم في نظري هو أن عشرات ومئات من الأمريكيين الذين كانوا مقدمين على الإدمان (بسبب ما يرونه في الحياة من فظائع التناقض السياسي المولم) توقفوا عن إقدامهم على الإدمان وبدأوا يفكرون في أن الواقع لا يفرضه البلطجية ولا المجرمون .

و مع هذا فقد بقي هاجس الأمريكان الذي يغذيه بعض الصهاينة بأن الخلاص من بشار ينبغي ألا يصب في مصلحة تركيا بأية صورة من الصور، وهكذا فإن كل اجتماع استراتيجي في الفترة القادمة سيكون معنيا في المقام الأول بالألا تستفيد تركيا من إزاحة بشار ولا من بيع ما يتخلف عنه من بقايا.

الباب الرابع

حقبة جديدة من العلاقات مع أمريكا

الفصل العاشر

من حق العرب أن يتفاءلوا برئيس غير تقليدي

التبخر في ليلة نوفمبر الباردة

ليس من شك في أن فوز الرئيس ترمب كان مفاجأة غير متوقعة للأغلبية التي تابعت أداءه بشغف منذ أعلن نزوله إلى حلبة الانتخابات ، وحتى وصل إلى المناظرات النهائية التي أظهرته أقل كفاءة و أقل توافقا مع متطلبات منصب بهذه الخطورة ، ومع أن هذه الأغلبية كانت (من باب الأخذ بالاحتياط) تتحسب للاحتمال القائل بإمكان فوزه بحكم ميل الأمريكيين لغير المؤلف وللمغامرة وللتجديد فقد كانت الحسابات تؤكد لأصحابها ضعف هذا الاحتمال بسبب ما عهدته السنوات الأخيرة في التوجهات الشعبية الأمريكية من حكمة جمهورهم وحنكتهم المتنامية في تأجيل الصدام ، وتلوين الخلاف ، وتجنب الحماس ، وضبط الإيقاع . وهي "حنكة شعبية" يقدرها حلفاء الأمريكيان بأكثر مما يفخر بها الأمريكيون أنفسهم .

لكن هذه المقومات الجوهرية في السياسة الانتخابية الأمريكية تبخرت في ليلة باردة من ليالي نوفمبر الخريفية، وإذا بجماهير المتابعين بعد منتصف الليل الأمريكي تواجه واقعا جديدا ، كان هو نفسه أول ما واجه أبناء الشرق الاوسط والقارة العجوز وهم (بحكم فروق التوقيت) يستقبلون في ذات الوقت تبشير وإشراق (أو تجهمات وغيوم) صباح اليوم التالي للانتخابات .

البداية لاستفادة العرب

تعددت التحليلات المستفيضة و الوافية لما يمكن أن يترتب على وجود الرئيس ترمب وأسرته وعصبته وشخصيته وعقليته وخبراته وحساباته ، لكنها في رأيي المتواضع لم تتوجه بالقدر المناسب إلى الشق الإيجابي الذي لا يزال من الممكن أن ينشأ عن وجود شخصية بهذه الدرجات الكبيرة من الاختلاف القيمي و الانفعالي في مثل هذا الموقع .

ومن الإنصاف أن أقول ، بل وأعترف بصواب كل الذين تحسبوا ولا يزالون متحسين من هذا التغيير الحاد والمفاجئ في زمن حساس ، وذلك على الرغم من اختلافي التام معهم ؛ فلا شك في أن الرأي العام محق في أن يقتنع بلا عناء بأن أسانيدهم أقوى من رأيي ؛ وسيعود ذلك ضمن ما سيعود إلى الحقيقة القائلة بأن الرئيس ترمب نفسه (وفريقه معه) يكادون يؤيدون كل وجهات النظر تلك بتصرفاتهم المبكرة المعبرة بوضوح عن صدق التقديرات المتحسبة من الرئيس ترمب وفريقه .

لكني مع هذا لا أزال ميالا إلى القول بأن المعطيات المرتبطة بتعامل الرئيس المنتخب نفسه مع مواقفه السابقة باتت تصب في مصلحة العرب والمسلمين، بل وربما تساعد الاستراتيجيات العربية البارزة بعدما عانت في السنوات الأخيرة من وطأة التقلصات الأمريكية و الانتهاكات الروسية .

اختلاف الإحساس بمشكلة المهاجرين

و سأتناول بعض الأمثلة الرمزية التي أدلل بها على أن العوامل الحاكمة في الجانب الباطن للرؤية ، ربما تكون أقوى بكثير من الدلائل القاطعة في جانبها الظاهر .
على سبيل المثال أولا ، فإن الرئيس ترمب يبدو وكأنه لا يعرف أوروبا الغربية ولا الشرقية على نحو كاف (ومن ثم فإنه لا يعرف العالم القديم ونحن في قلبه) ، لكن هذا الرئيس (على خلاف كل أسلافه) يعيش في الواقع تحت سقف واحد مع زوجته (ولدت في ١٩٧٠) التي نشأت و تربت في دولة صغيرة "جديدة " هي سلوفينيا التي كانت حتى تفكك الاتحاد اليوغسلافي ذاتية تماما في نظام يمكن وصفه باختصار بأنه نظام شيوعي معدل ذاتيا وموضعا على يد دكتاتور محنك هو الرئيس جوزيف بروز تيتو .

ليس هذا فحسب ، بل إن الرئيس ترمب في مطالع حياته الزوجية منذ ١٩٧٧ تشارك الحياة في تجربة زواجه الأولى مع سيدة منتمية تماما لأصلها التشيكي بكل ماضيه ، بما في ذلك الفترة التي انضمت فيها دولة التشيك إلى جارتها سلوفاكيا تحت اسم دولة تشيكوسلوفاكيا التي ربما كانت في الحقيقة بمثابة الدرة الثانية (بعد ألمانيا الشرقية) في الحلف (أو المعسكر) النقيض للناو والذي سمي بحلف وارسو .

هكذا فإن الرئيس ترمب الذي يبدو معاديا تماما للأجانب والهجرة واللجوء والتجنس والتطعيم ليس إلا واحدا من الذين عاشروا المشكلة بتوسع ؛ وعاشوها بعمق؛ وأرادوا لها حلا على مستوى ممول أو معالج اقتصاديا لا على المستوى المدفوع أو المطلوب إنسانيا فحسب .

أفضل من سياسة ذر الرماد

ومن حسن حظ الإنسانية أن هذا النموذج البشري ليس عصيا عليه أن يكتسب الفهم الإيجابي المتقدم للحلول والعلاج والاستيعاب الاجتماعي والسياسي و التحول الفكري ؛ وهو نموذج أفضل بكثير من نموذج شائع جذاب قد يمارس (بمهارة ظاهرة) سياسات من قبيل ذر الرماد في العيون ؛ تمارس العمل على مستويين مختلفين في حقوق المواطنة الخ

وعلى صعيد ثان متصل بالأول ، وإن كان أكثر تعقيدا وتنفيرا ، فإن الرئيس دونالد ترمب في خطابه السياسي بدا وكأنه يستسهل عداء الإسلام والمسلمين ؛ وبدا أنه يفعل هذا بطريقة أوتوماتيكية بحتة؛ بل إنه بدا وكأنه يصل بهذا الاستسهال إلى حدود منفلة تماما في تصريحاته وتعقيباته على

حد سواء ؛ وهي للأمانة في الطرح حدود غير مسبوقه ؛ لكن هذا لا ينفي أن هذا النمط من العداء يندرج تحت خانة العداء الملقن لا العداء المكتسب ولا العداء المجتذب ؛ و مع أن عداء من هذا النوع يبدو مفرطا في عمقه وتعبيره بلا سبب ، فإنه سرعان ما يفقد إفراطه ، بل ربما ينفرد تماما ؛ و يفرط فيه صاحبه سريعا .

الدعاوى القابلة للإذابة

لست أحب أن أكون حالما بلا مرجعية؛ ولا متفانلا بلا منطقية ، لكن المتأمل في كل دعاوى الرئيس ترمب ضد الإسلام يدرك بكل وضوح أنها دعاوى مستسهلة من أجل تجاوز أو حل المعضلات الأخرى ؛ وليس أسرع من تبخر مثل هذه الدعاوى بمجرد أن يلجأ المسئول أو صاحب القرار لمواجهة المشكلة ؛ والأمر في هذا شبيه بجهاز معطل تحت دعوى افتقاده لسلامة وحدة معالجة القوى الكهربائية power supply فإذا حرك المسئول مقيس الجهاز نفسه إلى مصدر آخر للطاقة فإنه أي الجهاز سرعان ما يعمل بكفاءته المطلقة ؛ وعندئذ تنتهي صدقية "التشخيص القديم" الذي كان مستسهلا تماما ؛ بل ستترافق مع نهاية هذه الصورة التشخيصية الكاذبة الجاذبة مجموعة من اللعنات التي تُصب على من صاغوها وعلى من استناموا لها .

فكرة الاستفاقة السريعة

وقد علمتنا التجارب التاريخية أن معظم الساسة البرجماتيين المندفعين ضد الإسلام بحكم ما تلقنوه وبحكم سرعة التيار ، هم أول من يستفيقون إلى ما كانوا يقعون فيه من خطأ عدواني يؤذيهم هم أنفسهم قبل أن يؤذي أحدا من المسلمين .

ومن حسن الحظ أيضا ، أن وسائل الاتصال الحقيقي قد أمنت طرقا لا نهاية لها لوصول أمثال الرئيس ترمب وفريقه إلى الحقيقة ؛ ووصولها إليه ؛ فضلا عن أن التجارب الحديثة تدلنا على أن طائفة معينة ومحدودة الأفق والعدد من المسلمين هم الذين يسعون في تأجيج العداء للإسلاميين الملتزمين ؛ ومن ثم فإن منطقتهم في التشويه يبقى في حدود النفاق الذي يصعب عليه تحويل المواقف الجوهرية بفضل افتقاده المؤكد لمكونات خاصيتي " المصدقية " و " الصدقية " في خطابه المعلن والخفي على حد سواء .

بين الاضطرار و الإلحاح

على صعيد ثالث ، فإن موقف الرئيس ترمب من الأمل في تسجيل النجاح الاستراتيجي لا يعاني من اضطرار ملحة ، وإلحاح حاد كما كان الحال فيما انتهت إليه الاستراتيجيات الأمريكية على يد ثنائي الرئيس أوباما وكيري ؛ ولعل أبلغ مثل دال على هذا هو تصريحات الرئيس ترمب عن إيران، وتصريحات مسؤوليها عن توجهاته ؛ ذلك أن الرئيس ترمب بحاسة رجل الأعمال أفتع نفسه بأنه سيتقاضى من أعداء إيران التقليديين مقابل حماية ، ومن ثم فإنه ليس بحاجة إلى

الالتفاف نحو ابتزازهم بايران ، و تدعيم قوتها الصاعدة عل نحو ما فعل الرئيس أوباما من تقارب غير مبرر !! (أثار منذ شهر نقد الرئيس ترمب وأعطاه المبرر لمواصلة العمل في ملف استثماري واعد) ؛ وهكذا فإن مقاربة الرئيس ترمب للصراع العربي الفارسي لقيت من العرب ارتياحا نفسيا لم يعبروا عنه بعد بما فيه الكفاية ، وكان لهم العذر في ذلك حتى لا يتورطوا في الفكرة الترمبية بكل ما يبدو فيها من تناقضات .

الأفق السياسي المتخوف

وفيما يبدو لي بكل وضوح ، فإن الأفق السياسي المتخوف منه لدور الولايات المتحدة الأمريكية في الشرق الأوسط في مخيلة وفلسفة فريق الرئيس ترمب " العقلي " سيتجاوز التمهيد لفكرة العمل على تفريغ المنطقة من أهل السنة إلى التهديد بإفراغها أيضا من أهل الشيعة ومن المسيحية الشرقية بكل طوائفها ؛ وهو ليس تفريغا ديموجرافيا بتهجير السكان (كما حدث في عهد الرئيس أوباما) ، ولكنه تفريغ عقلي يستلزم و يستتبع تفريغ عقول الشرق أوسطيين من عقائدهم .

هي فكرة تبدو خيالية ، لكنها في العقل الأمريكي الباطن تمثل الفكرة التي خلبت أبواب عتاة الأكاديميين الأمريكيين الذين أصبحوا وكأنهم يريدون أن يختصوا أنفسهم بأنهم أكثر البشر علاقة بصحيح الدين (!!) من خلال وسيلة واحدة فاعلة ، وهي إبادة معتقدات الديانات القديمة على نحو ما فعلوا و يفعلون في النظريات العلمية المتصلة بعلوم النفس والإنسانيات ، ليصنعوا تاريخا علميا جديدا يبدأ بما بدأت به المدارس العلمية الأمريكية ؛ ومن العجيب أن اليهود أنفسهم يتظاهرون بمجارة الأمريكيين في هذا النهج إلى أن يحدث ما هو متوقع من افتراق مفصلي في لحظات غير متوقعة .

وفي هذا الصدد ، فمن حق العرب أن يتفاءلوا بقدرة دينهم على صمود مذهل في مواجهة مثل هذه الأطروحات .

حيازة الفوز المشيا

على صعيد رابع ، فإن مفهوم النجاح عند الرئيس ترمب يختلف تماما عن مفاهيم النجاح الرئاسية الأمريكية منذ اندلعت الحرب العالمية الثانية ؛ فعقل الرئيس ترمب كما نقرأه من تصرفاته قبل خطابه لا يسعى لفوز امريكا فيما تمارس وإنما هو يسعى لحيازة أمريكا للفوز " مشيا " أي على هيئة شيء متجسد ؛ وهكذا فإننا لا نستبعد من الرئيس ترمب أن يطلب من اليونان أو إندونيسيا أو الفلبين أو حتى من اليابان شراء جزيرة مهجورة أو شبه مهجورة من الجزر العديدة التي تتكون منها هذه الدول ليتولى هو تعميرها بقاعدة أمريكية عسكرية تحت الأرض وبمنتجات سياحية أمريكية فوق الأرض ؛ وليبلور ما لم يتبلور لأمريكا من قبل من مستعمرات ما وراء البحار .

أمريكا أكبر من أن تكون شركة

وهنا يحق لنا أن نتفاءل ، حيث نستطيع القول إن الممارسات الأمريكية الاستغلالية الجارحة للسيادة في المنطقة العربية ستتراجع بكل ما يعنيه هذا التراجع من تحويل العنف السياسي إلى رياضة سياسية ذات قواعد ربما تعاني من الغش في بادئ الأمر لكن الغش الذي ستحتويه سوف يتضاءل مع الزمن بحكم انتشار العلم .

وخلاصة القول في هذه الجزئية ، هو أنني أتصور فريق الرئيس ترمب الرئاسي شبيهاً بذلك الإنسان الآلي (أو الروبوت) الذي كان مشغله يتصور من باب العلم المحدود أن وظيفة الأذنين هي حمل ذراعي النظارة الطبية دون أن يعرف أن حاسة السمع أهم للإنسان من حاسة البصر التي طلبت المساعدة من النظارة الطبية؛ ذلك أن الولايات المتحدة أكبر بكثير من أن تكون هي الشركة الأمريكية العظيمة .

الفصل الحادي عشر

في مواجهة سياسة جديدة

القذائف اللفظية

لا أزال عند رأيي القائل بأن من حق العرب أن يتفاءلوا بالرئيس ترمب ؛ وبخاصة في ظل ما ثبت من آثار سريعة لما أعلنه عن سياسته الواضحة تجاه إيران؛ وهي السياسة المطمئنة للعرب ، ومن التزامه بمنطق النفعية فيما هو نفعي بعيدا عن رطانة المبادئ التي أثبتت بعض سياسات الرئيس أوباما أنها مجرد وسيلة للخداع والاستنزاف المتصل مع مسحة باهتة من ابتسامات أكثر صفارا .

لكن أداء الرئيس ترمب و جماعة المحيطين به في الملفات ذات المسحة العقائدية تجاوز إقلاق الأمريكيين المناهضين لشخصه و الشعوب الأخرى المستهدفة بقذائفه اللفظية إلى كثير جدا من مواطني الكرة الأرضية الذين كانوا لا يتصورون نجاحه ، ومن ثم فإنهم في الأوقات المبكرة لم يشغلوا أنفسهم بالتفكير في مشروعية أقواله و عودته وعيده .

و ربما نبدأ بمثال بعيد في الجغرافيا ، لكنه يصور لنا حقيقة نظرة الجماهير إلى الرئيس ترمب الآن ، فلم يكن أحد ينظر بجدية إلى الاقتراح أو الدعوة التي أطلقها الرئيس ترمب بإقامة سور يفصل بين الولايات المتحدة المكسيكية والولايات المتحدة الأمريكية ، لكن أحدا لا يستطيع الآن أن يتحقق من أن الرئيس ترمب لن يلجأ إلى مثل هذا الإجراء في لحظة من لحظات الرغبة في إثبات الذات والقدرة ، أو في لحظة هروب للأمام من مشكلة ما من المشكلات التي تفرضها الطبيعة أو يستدعيها التاريخ .

الفرق بين المنتخب و المرشح

وعلى وجه الإجمال ، فإن صورة الرئيس ترمب المنتخب أصبحت تختلف عن صورة السياسي ترمب المرشح في ثلاثة أوجه :

- الوجه الأول أنه أصبح أكثر إنهاكا وأكثر إرهاقا ، وهذا ظاهر بوضوح في خطوته وردوده وتعليقاته وحتى في أخطائه الإملائية .
- الوجه الثاني أنه لا يبارح موقفه تجاه السياسات الدولية ولا يزال متمسكا برواه في السياسة الأمريكية الخارجية ، وهي الآراء التي تتسم بسبب صياغة خبراء من طراز خاص بالسمة الأنبوية (الميكروسكوبية) الضيقة دون أن يتسع بالرؤية السياسية على نحو ما كان متوقعا من رجل جرب النجاح وأصبح تواقا إلي تكراره .
- الوجه الثالث أنه صار أكثر ميلا لفلسفة المشروع وأكثر بعدا عن فلسفة المجتمع مع أن التحول المناقض لهذا الميل هو المطلوب .

الثقة في الوسائل

في مقابل هذا ، فإن كل سياسي محب لأمريكا كان ولا يزال يتوقع تحولا جذريا في توجهات الرئيس ترمب وأساليبه ، وبدون أن يرى هذا السياسي هنا أو هناك أنه يعتدى بهذا التمني أو التوقع على حرية الرئيس ترمب في العمل أو مرونته في الأداء الرئاسي .
من حق الرئيس ترمب أن يزيد من ثقته في الوسائل التي ساعدته على النجاح والفوز، لكن من حق المجتمع الذي انتخبته أغليبيته أن يتوقع منه أن يستشرف ما هو قادم عليه بأكثر من ثقته فيما نجح فيه.

لكن المعضلة الفكرية باتت تتمثل بكل وضوح في أن مستشاري الرئيس ترمب أو بعضهم على أقل تقدير لا يزال يعلن بالبحاح و بكل الوضوح والعلانية رأيا آخر أو آراء أخرى :

- فهم يعتقدون أنهم فازوا مع الرئيس ترمب ومن حقهم أن يحكموا معه ، وأن يصرحوا قبله وبعده ، للدلالة على أنهم شركاء في التفسير والتدليل كما وأنهم شركاء في التخطيط والخطاب.
- وهم يعتقدون حقا أو زورا أن هذا الأداء واجب عليهم بقدر ما هو حق لهم .
- وهم لا يبنون أن يتوقفوا (ليكون شأنهم شأن من في وضعهم) عند لحظة محددة معروفة لهم (لكنها غير محددة من الآن) كأن تكون هذه اللحظة هي ذلك اليوم الذي يخرج فيه مشروع معين (معماريا كان أم قانونيا) الى الواقع ويدخل الخدمة .

الوضع الملتبس

و في الواقع فإن الرئيس ترمب نفسه لا يرى إشكالية ولا صعوبة و لا غضاضة في أن يمضي هذا الوضع الملتبس ، مع أنه بالطبع و بالمنطق وضع غير قابل للاستمرار .
هذه هي أبرز ملامح الصورة من حيث الشكل الذي تراه بوضوح نسبة كبيرة من متابعي ظاهريات تجربة الرئيس ترمب ، وهو ملمح يدعو إلى القلق لكنه لم يصل إلى درجة استدعاء الخوف أو التخوف، فالبرلمان بغرفتيه قوي، وجمهوري أيضا ، أي أنه لن يسارع في الغالب إلى حالة الاستقطاب مع الرئيس الرئيس بما تثيره الحالة الاستقطابية من الخوف .

المكسب السهل

أما من حيث المضامين ، فإن دوافع الرئيس ترمب تكاد (مسبقا) أن تنخفض بالظاهر في أدائه من أداء رئيس دولة إلى أداء قائد مجموعة مغامرة تسارع إلى ما تراه مكسبا سهلا ؛ وفي السياسة فإن المكسب السريع ليس عيبا دائما ، لكن المكسب السهل يمثل طرازا أقرب إلى الخسارة منه إلى المكسب.

وعلى سبيل المثال ، فإن أي مراقب للأحداث في المنطقة العربية يستطيع أن يرى بوضوح أن المكسب السريع الذي حققه الكيان الإسرائيلي باغتيال المهندس محمد الزاوري قد نبه حماس إلى وجود اختراقات لم تكن معروفة لها ، ومن ثم فقد خلق الفرصة لمساعدتها على مراجعة أنظمتها وبنيتها الداخلي بما يضمن أن يكون أكثر قوة في مواجهة الكيان الصهيوني ؛ وكثيرا ما ساعد هذا الكيان أصحاب الحق الشرعي بمثل هذه التصرفات الإجرامية التي تتراوح في اندفاعاتها ما بين النزق والرهق .

التقدم العربي في ممارسة الاستراتيجية

قل مثل هذا فيما أعلنه الرئيس ترمب وما تسببت عنه تصريحاته من سياسات تمثل تقدما عربيا في ممارسات الاستراتيجية على نحو غير مسبوق ، سواء في ذلك ما تحقق أو ما هو بسبيله الجاد إلى التحقق على أساس متين :

- فالاتفاق الخليجي البريطاني يمثل خطوة جبارة في كسر الاحتكار الأمريكي ، وهي خطوة لم تكن لتتحقق لولا هذا الإلحاح الترمبي على المن بالاحتكار ، بدلا من أن يمتن للاحتكار !!
- والتقارب الخليجي التركي أصبح أكثر اقتناعا و أشد إقناعا من كل اللحظات السابقة.
- والتميز السعودي للمواقف ودلالاتها خرج خطوات واسعة إلى النور البازغ .
- والتهور الروسي في حلب بلغ غايته وكأنه مصمم على خسارة جماهير وجموع المسلمين للأبد ، حتى لو بدا أنه نجح في عقد اتفاقات من تحت الطاولة مع الحكام .
- والنموذج الفنزويلي للقابلية للعبث أثمر ما يحب الرئيس ترمب أن يراه ، أو يستشهد به ، حتى وإن أبدى اشمنزازه منه في المستقبل القريب .
- والأمين العام للأمم المتحدة بان كي مون يكرر تجربة أسلاف له في الترشح للرئاسة في وطنه كوريا الجنوبية ، مؤكدا بهذا على أن المحلية لا تقل جاذبية عن العالمية ؛ وعلى أن فكرة الحكومة العالمية نفسها لا تعدو أن تكون وهما انتهى أمده تماما ، وبخاصة أن الرئيس ترمب فيما يسعى إليه يميل حتى من دون إعلان إلى إلغاء دور الأمم المتحدة وليس تقليصه فحسب .

التقاطعات أكثر فائدة من المسارات

في كل هذه التعاقبات تبرز بوضوح فكرة مؤداها أن التقاطعات تتكفل بما لا تتكفل به الطرق من تحكم وتعديل في المسارات ، ويصبح الأمل متزايدا في أن تتوقف توجهات الرئيس ترمب المعادية للمسلمين عند حدود التصريحات قبل أن تدخل إلى مرحلة السياسات على يد بعض مستشاري الرئيس ترمب الذين يجاهرون بعدائهم المعروف للإسلام .

لكن هذا كله لا ينفي ولا يقلل من حجم وفعالية الأدوار المطلوبة من المسلمين والإسلاميين وأنصارهم :

- فالترفع عن الرد على مستشاري الرئيس ترمب المعادين للإسلام ليس فضيلة مطلوبة ولا مستحبة ، وإنما هو تقصير في واجب ؛ وهو تقصير يتعدى الإهمال ليصل إلى حد الإجرام .
- والكشف عن سوءات وسيئات اللوبي المعادي للإسلاميين (أيا من كانوا ، وأينما كانوا) أصبح بمثابة ضرورة ملحة بقدر ما هو سلاح فاعل .
- واستعراض الاستراتيجيات المتعددة في مواجهة هذه الموجة المعلنة للحقد ينبغي أن يخرج إلى العلن دون خوف أو وجل أو مجاملة أو تريث .
- بل إن الدعوة إلى لقاءات وندوات وورش عمل ومؤتمرات وفعاليات جماهيرية ووقفات ومسيرات في مواجهة " الترمبية " أو "المكارثية الجديدة " تمثل خطوة تأخرت بما فيه الكفاية عن موعدها .
- و إظهار درجات من التقارب أو تأجيل الخلافات في داخل المحيط الإسلامي أصبح أمرا تقتضيه الحكمة بقدر ما تحتمه الحنكة .

الفصل الثاني عشر

انحسار مؤشرات تجاهل المسؤولية

الهروب الانتقائي من الإنسانية

كان أبرز ما كرسه الفترة الثانية من رئاسة الرئيس أوباما في مجريات السياسة العالمية هو بروز مبدأ عدم المسؤولية ؛ وهو مبدأ برجماتي يميل إلى إثارة السلبية بادعاء الاستناد إلى مبادئ الحياد وعدم التدخل ، ثم البناء على هذه المبادئ في تسويق تجنب إصدار القرارات ذات التكلفة والهروب الانتقائي من الاضطلاع بالمسؤولية الإنسانية ، على نحو ما يحدث في استنكاف صاحب القوة أن يؤدي ضريبة القدرة على نصرته المظلوم .

وقد حاولت الإدارة الأمريكية من خلال الحوارات الجانبية أن تقنع الرسميين والشعبيين بأن لها الحق المطلق في أن تستثمر ديناميات هذا المبدأ ؛ بيد أن كثيرين لم يتقبلوا رغبتها وكثيرين آخرين لم يصدقوا دعاواها ؛ وأذكر أنني قلت لأحد الأصدقاء الأمريكيين من أصل مصري أن هذا " الترفع " ليس من حق الإدارة الأمريكية ، لأنها كانت قد اضطلعت بالدور الأكبر في بناء المنظومة الدولية (الحالية) المتمثلة في هيئة الأمم المتحدة في ١٩٤٥ بناء على التزام جوهري منها بحماية حقوق الإنسان ومنها حقه في منع الخوف ، فتوقف الصديق عن المناقشة حتى يراجع وثائقهم متفرغاً لها طيلة يومين.

دوافع الهروب

عاد صديقي الأمريكي ليقول : لكننا نحن الامريكان المحدثين أصبحنا وكأنا لا نعرف ذلك الماضي! ونقول لأنفسنا إننا بنينا قوتنا العسكرية والاستراتيجية لنستفيد منها في الأساس لا لننصر بها المظلومين من الظالم ! و أسرع كعادته بتطبيق رؤيته على ما يحدث في مصر قائلاً لنفسه بصوت عال : هل أجهدنا أنفسنا كأمركيين (واحتلنا حتى على الأخلاق) في تكوين الثروة ثم القوة لنأتي إلى لحظة ندفع فيها من ثروتنا لننصر (بمبدأ الأخلاق) شعباً ما على من يغتصب السلطة ويسيء استخدامها ، ويدفع لنا مقابل السكوت عنه عياناً وعينا؟؟

أحببت أن أذكر هذا المثل السابق مباشرة لأدلل به على نوعية المقاربات الفكرية التي جعلت قانونياً مبرزاً ونابهاً من طبقة الرئيس أوباما نفسه يفكر في اللجوء إلى مبدأ عدم المسؤولية ؛ ومن الجدير بالذكر أن الرئيس أوباما أصغر في السن من محاورتي الأمريكي الذي كان واضحاً وصريحاً في تعبيره عن فهمه للواقع والدوافع، أقصد بهذا أنه لم يعايش التطور بنفسه على نحو ما عايشه صديقنا المصري المهاجر منذ ستينيات القرن الماضي .

الانتقاص من الزعامة

في كل الأحوال فقد رسخت السنوات الأربع الماضية وجود هذا المبدأ على هذا النطاق العالي (ولا نقول الواسع) وأعطته جاذبية تبتعد بصاحبه رويدا رويدا عن صفة الوغد وتقترب به على استحياء من منطقة المعقولية الانتهازية .

ثم جاءت الأيام الأولى من حقبة الرئيس ترمب بأسوأ تطور محتمل تمضي إليه تجليات مبدأ اللا مسئولية ، حين تتحول سياستها ومعطياتها إلى فعل إيجابي لا مسئول ، لكنه متعجل سياسيا لتدمير الحاضر والمستقبل ، وذلك بقدر ما هو متوجه اجتماعيا إلى تشويه العلائق والحقائق على حد سواء .

وليس هناك وصف أكثر دبلوماسية من هذا الوصف المختصر لطبيعة موقف الرئيس ترمب اللا مسئول تجاه الفكرتين الإنسانية و الأمريكية على حد سواء .

ومع أن مبدأ " اللامسؤولية" (في صورته السلبية والإيجابية) قد يبدو مفيدا لأصحابه في المدى القصير ، فإنه سرعان ما يشي لهم بكل وضوح بفداحة الخطورة في تبيينهم له ؛ حتى إن كان هذا التبني مرحليا، وهي أنه يسلب من " الزعامة " حتى في القريب العاجل (و أحيانا أخرى في الوقت الراهن نفسه) ما هو متاح لها في العادة بفضل عوامل كثيرة من سمات القوة الطبيعية الكفيلة بأن تتحقق لما يعرف في الفيزيكا على أنه طاقة الوضع المتحققة أو المتولدة ذاتيا بالمكانة المحفوظة في الذات ، و هي مجموعة قوى (وليست قوة واحدة) قادرة على التعبير الصريح عن الردع والمهابة.

طاقة الوضع

وعلى سبيل المثال ، فإن التفكير البشري الطبيعي يجعل الإنسان يخشى من سقوط الحجر العالي ذي الوضعية القلقة ؛ ويتوقع العامة فيما يكاد يصل إلى اليقين أن تزداد المخاطر الناشئة عن سقوط الحجر كلما ازدادت كتلة هذا الحجر ، وكلما ازداد ارتفاعه، وكلما ازدادت حدة زاوية سقوطه، وكلما كانت أطرافه (المدببة مثلا) قادرة على الإيذاء والتدمير ، وكلما كانت مادته قابلة للتشطي والتناثر و التجريح والتفجير .. وقد يكون بعض هذه التوقعات صائبا فيزيقا ، وقد يكون بعضها الآخر صائبا فلسفيا فحسب ، وقد يجمع بعضها بين الصوابين .

و يختصر العلماء والفيزيقيون تسمية هذه العوامل القادرة على التأثير بطاقتها الكامنة فيها بما يعبرون عنه اصطلاحا بطاقة الوضع .

فإذا حدث في مؤسسة علمية أو مركز بحوث أن ترك الباحثون أو مديرو المعمل كتلة ما بكل مكوناتها في وضع حرج فقد ارتكبوا ما نسميه في السياسة باللا مسئولية ؛ و عرضوا ما هم

مسئولون عنه من كيانات إنسانية وغير إنسانية إلى المخاطر الناشئة عن اللامسؤولية ، على الرغم مما قد يبدو من أنهم وفروا نفقات المسؤولية وتبعاتها .
ومن الحق أن نعترف أن الرئيس أوباما لم يكن في اختياره لهذا البديل صادرا عن نية مبيتة لاستخدامه على نحو ما استخدمه بفضاعة ، لكنه (بعقله الاستراتيجي الحاد) وجد بعد تجربة وتبصر أن الأنسب له ولأمريكا أن يلجأ إلى هذا البديل الذي بدا له أقل كلفة وأسلم عاقبة .
وقد كانت هناك ثلاثة عوامل عميقة الأثر والتأثير حكمت تقديرات الرئيس أوباما للموقف الأمريكي من السياسات التي رأى أن من الأنسب أن تنتهج إدارته تجاهها نوعا من الأولويات اللامسؤولة التي اختارها :

ميراث جورج بوش الابن

كان العامل الأول يتمثل في ارتفاع كلفة الأقساط المتبقية من سياسات سلفه جورج بوش في أفغانستان والعراق ؛ وهو موضوع يطول شرحه ، لكن أرقامه مفزعة ؛ وورطاته لا تزال طويلة المدى .

أما العامل الثاني فتمثل في إجادة خصومه تكرار اللجوء (العلمي والخافت) إلى اللعبة السخيفة التي تكرر معايرته اللامأخلاقية بسواد بشرته و أجنيبة أصله وإرهاب دين أبيه الذي من المفترض أنه ولد عليه وحافظ على أصوله بحكم أن زوج أمه الذي رباه في طفولته كان هو الآخر مسلما .

صناعة مؤامرات متعددة الاتجاهات

أما العامل الثالث وهو الأهم من بين هذه العوامل الثلاثة، فقد كان من صنع الرئيس أوباما نفسه بحيويته وشبابه ورغبته في ممارسة الألعاب السياسية وفي إدارة الأعمال اليومية وفي الدخول إلى التفاصيل و التلافي ، وقد ساعدته هذه الصفات أو فلنقل دفعته إلى أن يشترك بنفسه في صناعة مؤامرات أمريكية متعددة التوجهات ؛ ومع أن تاريخ أمريكا في حب وحبك المؤامرات طويل ومتصل ، فإن مؤامرات عهد الرئيس أوباما تميزت عن مؤامرات أسلافه بظهور قدر أكبر من تورط الرئيس فيها (ولو بلمحة في خطاب عابر) ؛ وقد ساعدت وسائل التواصل المجتمعي في إنعاش هذا الطابع الكاشف كما أجم التكرار من الإحساس بزيادة حجم تدخل الرئيس الأمريكي فيما لا يوصف ولا يستقبل ولا يُفهم إلا على أنه تأمر .

استدعاء الفشل

ولما كانت قوانين الحركة السياسية تحتم أن يكون لكل فعل رد فعل ، فقد كانت كثرة الفشل والانكشاف في تداخلات الرئيس أوباما مدعاة للجوء الرئيس أوباما هو والسياسة الخارجية الأمريكية في فترة رئاسته الثانية إلى الأخذ بخيار اللامسؤولية، بعدما أثبتت الظروف فشل سياسة تكثيف التداخل المباشر .

ومن الغريب أن سياسة الرئيس أوباما بتناقضها المنطقي و نفعيتها الاقتصادية و جدليتها القيمة امتدت بظلالها لتخلق مشكلات حادة مع من كان كل أساتذة العلوم السياسية وخبرائها يظنونهم بمثابة الحلفاء الطبيعيين بل التلقائيين لتوجهات الرئيس أوباما ، يستوي في هذا بنيامين نتنياهو ، و فلاديمير بوتين ؛ ومحمد مرسي ؛ ورئيس الصين ؛ و رئيس الفلبين وأخيرا وهو الأهم رجب طيب أردوغان الذي صنف في بداية إعجاب الرئيس أوباما به على أنه ملهمه الأثير ؛ فإذا بالرئيس أوباما في عامه الأخير ، يكشف عن عمد و قصد بعض أوراقه في إطار ما عرفناه (فيما بعد) من أنه كان نوعا من التجهيز بصوت عال للانقلاب العسكري التركي الفاشل .

وقد جاء هذا الكشف في حديث صحفي للرئيس أوباما ، في فقرة تحدث فيها الرئيس الأمريكي بما يبدو و كأنه عفوية ، لكنها في حقيقته : عفوية علوية أمريكية معهودة (يسميها العرب : غطرسة !) فقال ما صيغته : حتى أردوغان الذي كنت أظنه ... إذا به!!

فكرة ذاتية المعايير

وهكذا أكد الرئيس أوباما لمن لم يكن متأكدا أن المعايير الأمريكية معايير ذاتية محضة لا تقبل أي نوع أو أية درجة من درجات الموضوعية أو التوافقية .

على أن خلاف الرئيس أوباما مع نتنياهو قد مثل حالة أفضع من حالة خلافه مع أردوغان !! وربما أن العرب والمسلمين لم يركزوا على هذا المدلول في ظل كراهيتهم لنتنياهو ؛ وإيمانهم بأنه يستحق كل عقاب وتحقير ، وهكذا فإنهم أهملوا الحقيقة الناطقة بأن موقف الرئيس أوباما من نتنياهو كان نموذجا لأقصى درجات الشطط في معاملة العملاء !! ولا نقول الأصدقاء المقربين .

ولهذا فقد كان لجوء الرئيس أوباما إلى سياسة اللامسؤولية بعد احتكاكاته المتوالية مع نتنياهو بمثابة هدنة يلتقط فيها رئيس الوزراء الإسرائيلي أنفاسه ؛ ومع هذا فإن الرئيس أوباما في جنازة بيريز ، أشاد بموقف محمود عباس في حضور الجنازة، في الوقت الذي تعمد نتنياهو ألا يشير إلى هذا الحدث الرمزي الذي كان يستوجب من أمريكا إن تلزم نتنياهو بتثمينه ، لكن الإسرائيليين كانوا قد بدأوا يرون أن الموقف الأمريكي رغم تصاعد دعمه ، فإنه لا يوصف إلا بأنه (بالتعبير التراثي) مستوى الطرفين indifferent . ومن الحق أن أمريكا نفسها حرصت على أن تثبت ولو ظاهرا صدق حدس الإسرائيليين الذين قالوا بهذا الاستواء في الطرفين indifference حين وقفت أمريكا موقفها الأخير من سياسات الاستيطان الإسرائيلية.

الباب الخامس

نهايات مبكرة لتخوفات متوقعة

الفصل الثالث عشر

شوق أمريكي لنظرية الاستعمار القديم

الغابة و القوانين

تتطرق التصريحات العفوية المتناثرة للرئيس المنتخب ترمب بتوجهات معبرة عن روح إمبريالية عتيقة ، و منها على سبيل المثال إيمانه بالخروج من غابة القوانين إلى قوانين الغابة كحل عملي لبعض المعضلات الدولية التي تنامت كنتيجة لما يعرفه العالم اليوم ويعانيه من السياسات شبه المتضاربة للولايات المتحدة نفسها، وليس أدل على هذا من قوله بحق أمريكا في بترول العراق من باب أنه "غنيمة حرب" مع أن أحدا في أمريكا كلها لم يقل أبدا بأن الحرب في العراق كانت تستهدف اغتنام ثرواتها ولا استعمارها ، حتى وإن كان هذا قد حدث ، ومع ما هو معروف من أن الوجود العسكري الأمريكي في العراق قد مثل أكبر إقلاق واستنزاف لأمريكا . ومع أن الخطاب السياسي لترمب في مثل هذا التوجه يبدو مختلفا تماما عن الخطاب الأمريكي الذي التزم به كل أسلافه ، فإن المفارقة تكمن في أن الرئيس أوباما هو أقرب هؤلاء الأسلاف إلى الرئيس ترمب في مقتضى ما عبر عنه هذا الخطاب من ترتيبات أو أولويات السياسات ومآلاتها كما في بعدها عن المنطق القويم وانتهاجها أو تبنيها لكود مختلف من المعايير الأخلاقية والإنسانية .

تناقض الاخلاق و المصالح

وليس من باب المبالغة أن نقول إنه كان من الواضح أن الكود الأخلاقي للسياسة الأمريكية الخارجية قد أصيب بهزة كبيرة منذ وقع الانقلاب العسكري المصري ، ونال ما نال من تواطؤ أمريكي مشبوه وصف في البداية بأنه غير مفهوم أخلاقيا ، وإن كان قد تم استيعاب جوهره فيما بعد شهور قليلة ، من خلال ما تفلت أو تسرب تباعا على لسان جون كيري . و سرعان ما أصبح النسق الشائك في المقاربة الأمريكية للأزمة السورية مفهوما من الوجهة البراجماتية المستترة نوعا ما ، وذلك في ضوء التوجه الخفي ثم العلني نحو التصريح بالعداء المكثف للإسلام (ومن ينتمي إليه حتى بالدفاع المنطقي) ثم الحرب الجادة عليه، وهو الأمر الذي ظهر بوضوح فيما اتخذته حكومة الولايات المتحدة من ترتيبات سلبية تجاه الممارسات المعادية للديموقراطية في اليمن وليبيا على حد سواء.

لكن هذا الافتراق البالغ حد التناقض المطلق بين الأخلاق المترنة بطبعها وبين المصالح المتقلبة بطبيعتها سرعان ما أربك ، دون توقع أو تحسب ، كل الاستقرارات والتوازنات التي كانت قائمة في المجتمعات الدولية والإقليمية ومساعدة لها على تقبل ناعم واضطرابي لكثير من طرز الهيمنة الأمريكية .

تفاعل مبدأي التوازن والتجديد

ولأن وهج الحياة الإنسانية و تألق مسارها ينبعث من النتائج المباشرة لتفاعل مبدأي التوازن (أو الاتزان أو الاستقرار) والتجديد (أو التنبيه أو الاستثارة) فإن كل الأمور الخلافية (أو الإشكالية) سرعان ما بدأت تجد نفسها خاضعة في تفسيرها لمثل هذه الاتجاهات الديماجوجية التي ظهرت نتائجها المضطربة بوضوح غير متوقع في معركة الاستفتاء على الخروج البريطاني ؛ بكل ما أوحى به من رفض جماهير عريضة للانسياق وراء سياسات مرسومة بعناية دون أن تعنى مكوناتها الجوهرية بوجودانيات الجماهير .

الإعلام المتحامل

ومن العجيب أن سوء حظ أوروبا صور لبعض ساستها النافذين من خلال اعتمادهم على الدراسات و المآرب الأمريكية أن الربح الأنفي يكمن مثلا في أن يهدد الإعلام الغربي بتعطياته المتحاملة زعيما ناجحا من طبقة أردوغان إذا لم تقدر الدبابة على إزاحته، وهكذا ظهرت تصرفات ساسة أوروبا في صورة مناقضة للمنطق ، حين أخذت تهدد أردوغان في تركيا في ذات الوقت الذي تهدد فيه انقلابيا في القاهرة ، وهكذا كانت العقلية السياسية الغربية تثبت على نفسها ، بكل السبل و وسائل الإثبات ، أنها مع العداء الاعمى لا للإسلام وحده ، ولكن لحقوق الإنسان ولاستقرار الدول و المجتمعات أيضا .

و إذا بأوروبا من دون أن تدري توشك على أن تخسر أردوغان وشعبه و قوميته ورجولته وكلمته وجديته ، وإذا بها أيضا تسدد معنويا وماديا ، مرة بعد أخرى ، ثمنا مضاعفا لهددها للانقلابيين ، بينما الانقلابيون لا يكفون عن تلوين وجهها وثيابها ، بل وبطنها وقلبها بالدماء من خلال ما يرتكبون من جرائم أصبحت تمتد إلى المواطنين الأوربيين مباشرة من قبيل ريجيني ومن قبيل حالات كثيرة مشابهة اجتهدت السلطات الأوربية نفسها في التغطية المكثفة عليها في محاولة مؤقتة وممتدة لتأجيل شماتة الديموقراطيين و الأخلاقيين .

توليد الثورات المضادة

ومن الطريف في هذه الجزئية أن الحسابات الغربية الدقيقة بدأت تشكو من أن القدر في أحيان كثيرة يأبى إلا أن يسير في طريق قويم يصبح معه كل ما يدبره الخلق من شرور كونية جالبا للوبال على كل من يحارب السلام والتعاون الدوليين بالفعل أو القول أو اللسان ، ومع هذا فإن

الانتباه أو الاعتاض أو التعلم من التجارب المريرة قد تأخر بأكثر مما يجوز . بل إن هذه الأنساق الفكرية الشريرة قد تدافعت (على النحو المتوالي الذي خبرناه) لتصوغ سياسات توجيهية عامة على هيئة آليات (أو ميكانيزمات) تستعين بها الإمبرياليات الجديدة في سعيها من أجل توليد الثورات المضادة .

و قد لاحظ المراقبون أنه مع تولد الثورات العربية المضادة ، فإن خطى الانتهازيين والنفعيين تتسارع من أجل مصادرة حركات الجماهير التي وصلت إلى درجة من الوعي لم تعد تسمح لها بالبقاء رهينة لدكتاتوريات محلية لا تستند في وجودها إلا إلى قوة السلاح الذي أعطت نفسها حقا غير شرعي في تحريكه واستخدامه فيما هو محرم بحكم الوظيفة المفترض أن تكون وطنية ، فإذا بها تتحول رويدا رويدا إلى امتياز فتوي ذي طابع طبقي يريد أن يُتوارث على نحو أو آخر . وقد أصبحت هذه الآليات الجديدة قابلة للتأصيل (والتنفيذ) على أنها استراتيجيات أمريكية على نحو أو آخر .

توريط الجيوش في السياسة

وعلى سبيل التأكيد ، فإن الآلية الأولى للاستعمار القديم العائد بقوة هي توريط الجيوش في السياسة ، وهي آلية لم تكن في حاجة إلى جهود استراتيجية ولا تعبوية في ظل ما عرف من ميل عسكر العالم الثالث بحكم ظروفهم و بطبعهم الى تقديس السلطة وعشقها، و تفضيلهم الانشغال المفتعل بالحكم على الانشغال الطبيعي بتوقي الحرب .

و لا شك في أن غواية السلطة بجاهها ووجاهتها و مخصصاتها كقيلة بأن تهى ، بل أن تعزف موسيقى نفسية وعقلية متجاوبة مع إغراءات الأمريكيين غير المباشرة بالتفكير في الاستحواذ على السلطة ، مادام هناك عسكريون قرب نهاية عمر خدمتهم الوظيفية يحسون بعمق بكرهيتهم الشديدة لزمّن التقاعد وما يصحبه من انخفاض الدخل (بلا مبالغة) إلى أقل من واحد على عشرين من مخصصاتهم التي يحصلون عليها في سنواتهم الأخيرة من خدمتهم العسكرية .

وربما يسهل علي كل إنسان طبيعي أن يتصور الفارق الشاسع في الثروة والممتلكات بين مدير السلاح السابق الذي خرج إلى التقاعد قبل الانقلاب وبين زميله التالي له في تولي منصب مدير نفس السلاح الذي شارك في الانقلاب بحكم الزمن (قبل أن يشارك بحكم الاقتناع) .

توظيف الإعلام في صناعة البلبلة

أما الآلية الثانية للاستعمار القديم العائد بقوة ، فهي توظيف الإعلام إلى أقصى الحدود في صناعة البلبلة الفكرية (والتفكيرية بل والتكفيرية) في كل طرح سياسي أو تنموي.

وقد لقيت هذه الآلية المصادفة المواتية في بلوغ الإعلام الخاص مرحلة المراهقة ؛ وهي مرحلة حتمية في مسار ذلك النمط الجديد من أجهزة صناعة الوجدان في بلدان نامية لم توظف بعد

آلياتها القادرة على استكشاف مكامن الخطر و على استشراف منابع النصر . وقد كان هذا المعنى واضحا في وسائل الإعلام التي دعمت أمريكا وجودها منذ مطلع الألفية الثالثة في أطر مختلفة كان منها على سبيل المثال برنامج دعم الديموقراطية .

وهكذا تحول الإعلام " الوطني " في ملكيته الدفترية إلى إعلام خاضع تماما لسيطرة الشركات أو الكيانات العابرة أو المتعدية للجنسيات من خلال سيطرتها المباشرة على التمويل بل والتأسيس ؛ و مما يؤسف له أن هذه السيطرة في حقيقتها وفي كليتها سيطرة مباشرة وصريحة ، ولم يحدث لها أن تنازلت حتى و لو من باب الحياء الوطني لتكون سيطرة غير مباشرة .

المعارضة التشريحية

أما الآلية الثالثة للاستعمار القديم العائد بقوة ، فتمثل في استئثار "المعارضة التشريحية" ، وهو مصطلح جديد يصف مفهوما أو حالة لم توصف توصيفا صحيحا حتى الآن ، فكما أن المعارضة الوظيفية تنبني على تقييم الفكر والاداء فإن المعارضة التشريحية تستند إلى استدعاء الانتماء بمعناه العرقي لا الفكري .

وتتأسس هذه الآلية من خلال برامج تعبوية محمومة تسعى بوضوح إلى توظيف الإحساس بالتهميش أو التغييب عند الأقليات العرقية في الأساس أو الجغرافيا سكنا أو استيطاننا ، بل إن هذه البرامج والخطط قد تمتد إلى الأقليات داخل كل مهنة ؛ وهي آلية كفيلة بانتقاص و تمزيق روح النسيج الواحد ، ومن ثم إفسال وظيفة الأعضاء الحيوية في كل جسد وطني أو قومي .

أبوة الشرور

ومع أن معظم مقومات الأداء المهني في البلدان النامية قد تجاوزت الانحصار في مثل هذه المرحلة إلى الانعتاق منها ، فإن ضيق ذات اليد (أو تضيق ذات اليد من خلال خفض قيمة العملة الوطنية على سبيل المثال) لا يزال بمثابة وسيلة كفيلة بأن تروي وتنعش هذه الميول الكامنة وتبرزها لتسيطر على المشهد العام ، وبخاصة في ظل ما يرافق هذا التحول من انحياز انقلابي أعمى و مقصود إلى سياسات خلق طبقات مميزة ، مع إضفاء أسماء خادعة و ضالة ومضللة عليها . ويتحقق هذا على سبيل المثال أيضا من خلال وسائل مناقضة كالجوء المعتاد أو التقليدي إلى استخدام تعبير "جهة سيادية" لتجنب ذكر تعبير آخر كان الإعلام الناصري نفسه ومن خلال إعلامه كان هو الذي تولى تشويبه وتقبيحه للجماهير (دولة المخابرات)، مع أن المفارقة تكمن في أن الولايات المتحدة الأمريكية لا تخفي اسم وكالة المخابرات المركزية ولا تتجنبه ، بل تذكره بفخر وشموخ ، على الرغم من كل الأساطير والحقائق التي تؤكد أو تزعم أبوة هذه الوكالة لمعظم الشرور في العالم منذ نشأتها وحتى نهاية التاريخ .

الفصل الرابع عشر

انحياز أمريكا للديموقراطية أم للكاريزما ؟

خطر الكاريزما المصطنعة

لم يعد من الصعب إدراك خطر فكرة الكاريزما المصطنعة على المنظومات السياسية ، فهي جماهير الولايات المتحدة الأمريكية تعاني لأول مرة في تاريخها من صورة مضخمة من الشطط الذي أثر رئيسها أن يحله محل الخطط ؛ وها هو العقل الجمعي الأمريكي دون خداع أو مراوغة يدفعها إلى أن ترى نفسها في حاجة ماسة إلى خروج مواطنيها إلى الشوارع والميادين ومواقع الخدمة المدنية لتنتيبه رئاستهم وسلطتهم التنفيذية إلى عدم رضاهم عن أي إجراء من شأنه أن يفرض على كيان الدولة بصمة ما لرؤية متطرفة في تقييمها للأمور ؛ ومن ثم في إدارتها للحركات و الإجراءات ؛ و ينتوج هذا الغضب والرفض إلى تعبير أمريكي إعلامي واضح ، بل سافر الوضوح و التعليق والتقرير والاستنتاج و متعزز بكل صور التجسيد والتمثيل والتشبيه والتجريد ، تعززه مناقشات ساخنة تتداولها جموع الشعب المعبرة عن عدم ارتياحهم للجموح غير المبرر في ممارسة العنت والتعسف والاندفاع والتشبث .

مع هذا الميل الشديد إلى الحفاظ على حدود متوازنة من تجليات العقل والحرية معا والحرية و الأمن معا أيضا فإن الأمريكي العادي لا يزال ملتزما تماما بالشكل ، فهو لا ينكر على الرئيس حقه في أن يعتقد ما شاء له الاعتقاد ، وأن يخطو بما يقوده به فكره ، لكنه ينكر على الرئيس بكل قوة أن يظن أنه قادر (برياسته) على أن يعتقد لمواطنيه أو بالنيابة عن مواطنيه ما يظنه صوابا ، فإذا ما ترجم الرئيس ظنه إلى قرار صارم (على نحو ما حدث بعد إعداد خفي وتجهيز دؤوب من كواليسه وفي كواليسه) ، فإن الأمريكي العادي يواجه الموقف المفروض بكل ما يمكنه من صرامة لا تقبل التسويغ ولا المراوغة .

رجال القضاء الأمريكي يصوبون

وبالمنطق السليم والمسئول ذاته ، فإن صناعات العدالة و سدنتها من رجال القضاء الأمريكي (مع اختلاف المستويات) يسارعون إلى التصويب في إيجابية مطلقة ، وهي أيضا إيجابية محمودة القصد ومعهودة الدور في حماية القيم الإنسانية (والأمريكية أيضا) من بطش يد الإنسان مهما كانت سلطة عقل البشر ؛ وقد مارس هؤلاء القضاة مهمتهم السامية هذه بتلقائية مذهشة للعالم وغير مذهشة من الحدث، من دون أن يرفعوا عقيرتهم بأي ذكر لفضل أو تفضل ، مؤمنين بأن واجبهم السامي لا يترك لهم مساحات للاختيار ولا للزعم بالأفضلية ولا للتأكيد على

سلطة ، وهكذا تضي الحياة السياسية في وجود القانون الذي يسبغ عليها ظله ، فخورة بالعقل ، معترزة بالواجب ، و غير وجلة من التجاوزات .

لكن السلطة هي السلطة ؛ وصاحبها يعتقد في أنه حقق النجاح لمجرد أنه وقع على القرار الذي أوقف إجراء ما ؛ ولأنه أخرج فكرته من عالم التصور إلى منطقة التنفيذ والجدل مهما لقيت آلياته من التعطيل والوقف ؛ وهو بمساعديه يحاول تكرار الالتفاف مستهلكا دون أن يدري من رصيد الزمن الذي هو المورد الأول لما يحتاج إليه من إنجاز سياسي أو وطني يعوض مثل هذا الفشل المبكر في إثبات الكاريزما ويستعيد له جذوة الأمل المعهود في إثبات سريع للرغبة في التميز والتفوق .

هل الكاريزما لعنة بأكثر منها نعمة

تتأزر هذه التفاعلات على نحو ما نرى ملامحها في التغطيات الإعلامية المحمومة للسجل الدائر فتوحي لدارسي السياسة وخبراء الاستراتيجية بالتفكير في تقرير حقيقة غريبة، وهي أن الكاريزما في مثل هذه الحالة أصبحت لعنة بأكثر مما كانت نعمة.

ويكاد الخبراء يجمعون على الجهر بهذا الحكم مضخما لولا خوفهم من اتهامهم بالمبالغة في إطلاق الأحكام ، لكن فداحة التجربة الترميمية تجعلهم يميلون إلى الاكتفاء بالتحفظ الوحيد المتمثل في وصف الكاريزما المقصودة بأنها "الاصطناعية" على نحو ما فعلنا في مستهل حديثنا ، و كأنهم يدفعون عن أنفسهم مغبة التحيز اللحظي أو المؤسس على حالة خاصة ، وهو ما قد يجرمهم من نعمة مقبلة قد يأتي بها القدر في صورة كاريزما عاقلة بعد المعاناة الإنسانية من تعاقب زعامات خطيرة بدأت بالزعيم الألماني أدولف هتلر و وصلت حتى الرئيس دونالد ترمب .

وتنعكس آثار عقيدة الخبراء هذه بوضوح شديد في مرآة الواقع السياسي الخاضع لنظرية الأواني السياسية المستطرقة ، وهو الواقع الذي يدفع الجماهير المتزنة الآن إلى التثبيت بشخصيات تبدو متزنة بأكثر منها كاريزمية من طراز ميركل و أردوغان و بوتن ، إذا لم يكن العثور على النموذج الكندي والياباني متاحا .

تشكيل مفردات السياسة

على صعيد آخر، فإن الفكر السياسي يعاود تشكيل مفرداته ليعترف بما كررت التنبيه إليه مرارا ، من أن المجتمع المدني أصبح هو السلطة الأولى الحقيقية في دنيا السلطات في هذه الحياة السياسية المائجة ؛ وهي فكرة أجاهد في سبيل إحلالها محل فكرة مونتسكيو عن سلطات عصره الثلاث المتمثلة في التشريعية والتنفيذية والقضائية ؛ ومن حسن حظي أن عوامل الحياة المضطربة لم تقدم حتى الآن لهذا الموقع الأول سلطة بديلة لهذه السلطة النافذة المتمثلة في المجتمع المدني

الذي ظهر بكل وضوح أنه يملك قدرة فائقة على اختيار آليات كفيلة بترجمة المعتقد الفكري إلى إجراءات تنفيذية حية ومنطلقة و كفيلة بتغيير الصورة على أرض الواقع .
ولست أعو الحقيقة فيما أذهب إليه و أقرره في هذا الشأن فيكفيني أن أشير إلى أن الدعم المادي (الذي هو تبرع طوعي) قد انهال على هذه المنظمات المدنية ليتمكنها من أن تخصص وتمول أطقما قانونية متكاملة ومدعومة تستقصي حالات أولئك الذين سيضارون من هذه التصرفات الهوجاء لتقف معهم قبل أن يصل رذاذ الحماس الرئاسي إلى أفقهم المنطلق وهم يعودون إلى أرض أمريكا !!

التسلط البيروقراطي

حدث هذا على الرغم من أن التسلط البيروقراطي الأمريكي كان قد بلغ حدا مرعبا تمثل في قيام موظفي الجوازات والهجرة في المطارات بسحب كروت الإقامة green cards من بعض المقيمين الذين تصادف أنهم عادوا إلى الولايات المتحدة في اليوم الذي وقع فيه الرئيس ترمب على أوامره الرئاسية !

وفي المقابل فقد وصلت قوة المجتمع المدني في آلياته التنفيذية إلى ما لا تستطيع أكبر إدارة تنفيذية في التاريخ أن تواجهه ، بما يضمن لها الحفاظ على ماء وجهها الذي أراقته من أجل زعم متضخم ؛ وشك متكبر ؛ وظلم متعطر ؛ ومن دون أن تنتبه إلى أن للقيم العليا حظا باقيا في الحياة لا يقل عن الحظوظ المجتمعة لكل عناصر القوة والمال والسلطة .

السلطة التنفيذية و العسف ببنية المجتمع

أما وسائل الإعلام و وسائل التواصل المجتمعي ، فقد أديا باقتدار مذهل موقفا يليق بما كانا قد أحرزاه من اجتماع السطوة والسلطة ، وقد بلغ نجاحهما الساحق حدا لا يمكن وصفه في مقال ، ويكفي أن نصفه بأنه بدأ يستثير العطف على أكبر رأس في أكبر سلطة تنفيذية في العالم كله ، بل وعلى كل آليات السلطة التنفيذية مجتمعة .

وفي خضم هذين النجاحين المذهلين للمجتمع المدني والإعلام والتواصل الاجتماعي ، فإن أحدا لم يعن بسؤال نفسه عما أصاب السلطة التشريعية من تراجع ملحوظ لدورها (و هو تراجع وصل بلا مبالغة إلى ما يقترب من الغياب) فيما يتعلق بتلجيم السلطة التنفيذية عن العسف ببنية المجتمع الأمريكي ؛ وسلامة هذه البنية .

آليات الكونجرس أصبحت أبطأ

أغلب الطن أن هذا النقاش الغائب يوازي اللا اهتمام البرلماني الذي كان قد اتخذ قراره الاضطراري بالغياب الشكلي في ظل اقتناع عميق بأن آليات الكونجرس بمجلسيه أصبحت أبطأ مما ينبغي إذا ما قررت التصدي للرئيس .

- فهي من ناحية الكيان أصبحت كما العادة مقيدة بالتوازن الديمقراطي الجمهوري بأكثر مما هي مشغولة بالصراع الأمريكي / الأمريكي ؛ وهو موضوع طويل ومتشعب يمكن تلخيصه الآن في القول بأن الطابع الحزبي بات يستنزف بعض ما ينبغي من اهتمام لقضية الهوية .
- وهي من ناحية ثانية أصبحت ملتزمة بقواعد التوازن مع سلطة الرئيس بأكثر من التزامها بقواعد التوازن مع سلطة القانون .
- وهي من ناحية ثالثة أصبحت مشغولة بصناعة التشريع بأكثر مما هي مشغولة بحماية التأسيس الذي كان قد بدا أنه استقر منذ زمن بعيد ؛ ولم يكن أحد ليتصور أن سيكون هناك من سيفكر بالعبث به على هذا النحو .

الوساوس أقوى من النصوص

وكانت محصلة هذا التحفظ التشريعي بمثابة أكثر من نعمة ، لأنها حمت المضمون من الشكلائية ، بعد أن ساعدت في تأكيد مكانة سلطة المجتمع المدني و تعزيز مكانة سلطة الإعلام و وسائل التواصل الاجتماعي إلى الحد الذي يمكن معه أن يجاهر المتأمل أو الباحث أو السائل فيقول : وماذا كان من الممكن للكونجرس أن يفعل في مواجهة الرئيس ترمب ؟ وخصوصا أن مشرعيه (أو بالأحرى مستشاريه) بنوا له قراراته على نصوص و وساوس ؛ وأن الوساس phobias باتت بفعل الزمن (والإعلام أيضا) أقوى من النصوص !!

بل إن هذه الوساس أخذت في توزيع سلطاتها وتوسيع مداها أيضا حتى ضمت معها كثيرا من الهالوس hallucinations ، و قد فعلت هذا و هي سعيدة راضية وأحيانا منتشبة بهذا الذي يسمى في لغة اقتصاد الشركات المعاصرة : الاحتواء أو الدمج acquisition .

الفصل الخامس عشر

رئيس غير تقليدي في مرايا تقليدية

لست أستطيع أن أنكر أن الحديث عن الرئيس الأمريكي دونالد ترمب قد استحوذ على كثير من أحاديثي العابرة وغير العابرة مع نماذج متعددة من الأمريكيين ، وأن الآراء التي بدت و أبدت في هذه الحوارات كانت من التعدد و التنوع والتعارض والاختلاف ، بحيث يصعب إخضاعها (كالعادة) لنماذج معدودة تمسك بها الأصابع الخمسة ، ولهذا فقد آثرت أن استعرض اثنتى عشرة رؤية من هذه الرؤى التي عكستها مرايا مواطنين أمريكيين يتمتعون بالقدرة على التعبير الكاشف عن مكنونات عقلية و وجدانية ذكية:

الأمريكي المتعقل

يعتمد على دراسات الجدوى والتوقعات المحسوبة والمتحسبة و من ثم فإنه يرى أن أمريكا الآن أصبحت كالمقامر بثروته كلها، فهي إما أن تكسب كل شيء وإما أن تخسر كل شيء؛ إما أن تعلقوا لم تشهده من قبل وإما أن تبدأ الانحدار في طريق الانهيار ، و مع أن مثل هذا الأمريكي يتلمظ للانتصار الذي من الممكن أن يتحقق ، فإنه في الوقت ذاته يضع يده على قلبه خوفا من الانكسار الذي لم تعهده أمريكا من قبل، وهو بالطبع لا يمانع في أن تأتي له موجة من موجات الرواج.

الأمريكي الحالم

يرى أن سياسات ترمب (لو صادفت إخلاصا بيروقراطيا وتشريعيا و صمنا إعلاميا مناسباً) سوف تكون قادرة على أن تحقق للولايات المتحدة الأمريكية ذروة من ذرى النمو الاقتصادي التي تكررت على مدى التاريخ الأمريكي ؛ والتي كانت في أغلبها نتيجة طبيعية لشرارات التصور غير المألوف أو التفكير خارج الصندوق المتاح ؛ و بيني هذا الأمريكي الحالم نظريته على الفكرة الجذابة التي تقول بأن تغيب الحسابات قادر على أن يحقق مالا يحققه تنفيذ أفضل الحسابات وأدقها ، شريطة أن يقترن هذا التغيب باستحضار روح الامبراطورية استحضارا صادقا وجادا.

الأمريكي القلق

يخشى أن تكون هذه المناقشات دليلا على بدايات غير مطمئنة فيما يتعلق بما تحسب له الأمريكيون الأوائل من ظهور مفاجئ لأية نزعات انفعالية كفيلة بأن تؤدي إلى التصدع في نسيج البنية الاجتماعية للمجتمع الأمريكي ، أو تؤدي حتى إلى التصدع في الصورة الظاهرة

من التماسك المتزن ، أو تؤدي على أقل تقدير إلى التصدع في الانطباع الداخلي أو الذاتي عن هذه الصورة التي تفخر بها أمريكا ، والتي كانت بالفعل صورة حقيقية لتفاعلات إيجابية حقيقية كانت تجمع بين متواليات من أربعة عناصر : القدرة على التذمر على كل ما قد يبدو وكأنه مجاف للعدل ، والقدرة على التحرر من تراث القواعد التي خلقت أية حالة بدت وكأنها لا تتسق مع المنطق المرتبط بالمنفعة الحدية من ناحية وبالقيمة المضافة من ناحية أخرى ، ثم القدرة على تقييم النعم والمزايا المتحققة عبر المؤسسة ، وأخيرا (أو رابعا) القدرة على الحفاظ على التفوق والألق الناشئ عن الاستقرار .

الأمريكي السينمائي

يعتقد عن يقين في أن المخرج هو سيد الموقف؛ وأن النجم السينمائي الأول ليس أبدا سيد العمل ولا الموقف؛ وهو يؤمن بخبرته العقلية المتطورة في الفهم والواسعة في الخيال أن دولته العميقة قادرة على ضبط الأمور في اللحظة المناسبة حتى لو اقتضى الأمر اختفاء مبكرا للبطل أو ظهورا غير متوقع لبطل جديد من داخل نظام البطل نفسه.

الأمريكي المتدين

يؤمن أن الرب ينبه أمريكا إلى أنها تستحق عقابا من هذا النوع الذي يسيطر القلق فيه على نهار الإنسان وليله على حد سواء؛ وهو يرى السبب في هذا راجعا إلى أن بلاده أسرعت في المضي في درب الخطايا في سنواتها الأخيرة ، فتبنت على سبيل المثال رؤى لا دينية في تعاملها مع قضايا من قبيل الإجهاض؛ كما تبنت مواقف لا أخلاقية تمثلت في خذلان استغاثة السوريين، بعد أن وعدتهم بالنصرة؛ بل وصلت إلى حدود غير معقولة من التآمر غير المبرر على الديمقراطية ، وعلى المسلمين المسالمين في مصر وفي أكثر من عشر بؤر من بؤر الصراع في العالم القديم.

الأمريكي المتعصب

يختلف في تجليات أحكامه عن الأمريكي المتدين رغم ما قد يبدو من انطلقهما من قاعدة واحدة أو جذور مشتركة لكنه يرى في الرئيس ترمب هبة موسمية (ومعتادة) من السماء؛ قادرة على أن تصحح ما حدث من إضفاء الشرعية على زواج المثليين؛ وتميل إلى استنباط القيود التقليدية والدينية بدلا من التخفيف منها بله التحرر؛ ويميل هذا الأمريكي المتعصب إلى أن يقصر حقوق الإنسان على من يريد أن يعتبره ذا حق فيها ، وذلك في مقابل القول الطبيعي بعمومية هذه الحقوق دون تمييز؛ ويكاد هذا الأمريكي المتعصب أن يتبنى بلا موارد رؤية اليهود في الانتصار لأنفسهم فقط على حساب كل الأغيار ، وهي الرؤية التي عبر عنها القرآن الكريم بلفظه المحكم : ليس علينا في الأميين سبيل.

الأمريكي الرياضي

لا يرى الأمر إلا في إطار بطولة لن يطول أمدها لأنها لابد أن تنتهي إلى نتيجة ؛ وهو لا يعول على أن يحدث في المستقبل أي تغيير في تاريخ اللعبة نتيجة هذه المسابقة أو البطولة ؛ وإنما أقصى ما يمكن أن تحققه هذه التجربة في مسار التاريخ الرياضي هو أن تتساجل فيها (ولا نقول تتحقق) أرقام قياسية لم تسجل من قبل ؛ وهو لا ينكر أن هذه الدورة من دورات البطولة قد صادفت اهتماما إعلاميا غير معهود (وإن لم يكن مستبعدا) في إطار قاعدة تفاوت حظ الدورات من اهتمام الإعلام ؛ وهو يرى أيضا أن هذا قد حدث بسبب عوامل ترتبط بالميديا أكثر من ارتباطها بالموضوع نفسه .

الأمريكي الحاسم

يرى أن الأوان قد آن لتنتقل أمريكا في تحقيق أحلام الهيمنة التامة على مقدرات الأمور والثروات ، بحيث لا ينمو إلا من تريد له النمو ولا يتحرك إلا من تريد له التحرك ، و يرى أن فرض المنع من الدخول ليس إلا مقدمة لإنهاء وجود من يخرج عن طوع أمريكا ؛ ومن ثم فإن الخطوة التالية ستتحقق تلقائيا ، وهي أن يصبح العالم كله مجتمعا أبويا (بظريزيا) بكل ما تعنيه تلك الأبوية الاصطلاحية ، وهي فكرة تتجاوز فكرة القطب الواحد . وهو أي الأمريكي الحاسم يؤسس على هذا توقعات مشروعة بالثراء الأمريكي القافز عبر ارتفاع سعر صرف الدولار وأرقام المدخولات. و وفورات الميزانية ، فضلا عن توفير الموارد المنفقة في العديد من حالات التورط.

الأمريكي الساخر

يرى أن الدور المؤدى الآن على مسرح السياسة ليس إلا معادلا موضوعيا لصيحات العيب في المسرح أو موجات الهيبيز في تاريخ الشباب ، وأن هذا الذي يحدث شبيه في آليته بميكانيكيزم الزلازل والبراكين التي تساعد الكوكب الذي نعيش عليه على أن يتخلص من الشحنات الكهرومغناطيسية الزائدة عبر جزء من القشرة الأرضية، بدلا من أن تنفجر الكرة الأرضية كلها ؛ وهو يدل على صواب رؤيته بأن هذه التصرفات التي ننظر إليها على أنها حماقات قد حقت بالفعل أكبر قدر ممكن من الانفراجات في أزمات عديدة كانت تتعقد كلما اقترب منها نظام الرئيس أوباما بالآليات الملتبسة التي تزيد التعقد الذاتي ، بل وتضاعف من روح التشبث بالمواقف عند الأطراف المتصارعة ، على حين أن الأطراف المشتبكة في أي نزاع راهن أصبحت تحاول التوازن حتى لا تستثير منظومة القرار السياسي الأمريكي ، وهذا في حد ذاته مكسب كبير.

الأمريكي المتعطر

يرى أن الرئيس ترمب لم يفعل شيئا لم يعد بإنجازه من قبل ؛ ولم يقل شيئا لم يصرح به في أثناء الحملات وقبل الانتخابات ؛ صحيح أن منتقديه لهم حق ما في انتقاد بعض مقارباته ، لكنه

رجل قوي ومن حقه ان يمارس القوة . وهو يرى أن الأسلوب الذي يتبعه الرئيس ترمب هو الخيار الوحيد القادر على أن يخفف من غلواء من يعوقون الصعود الأمريكي بأحاديث مختلفة عن حقوق الإنسان ؛ وحماية البيئة وما إلى ذلك مما يصفه المتغطرسون بأنه باطل يراد به باطل وليس حقا يراد به باطل أو باطلا يراد به حق!!

الأمريكي المتسلط

يرى أن الرئيس ترمب يمتلك الخلطة السحرية المطلوبة للعصر الراهن الذي نعيشه ؛ و أن واجب أمريكا الأول هو أن تحافظ على نفسها قبل أن تحارب من أجل قيمها ؛ وأن تعنى بمواطنها قبل أن تعنى باللاجئ إليها ، بل أن تعنى بمن يدفع الضرائب قبل أن تعنى بمن يستفيد من الضرائب ؛ وهذا الأمريكي المتسلط لا يكرر مزاعم اليوجينيين القدامى الذين قالوا إنهم لا يهتمهم إلا الصفة فحسب ، ولكنه يعبر عن دهشته من تأخير أمريكا لدورها و واجبها الأممي في إظهار الازدراء الواجب تجاه الضعفاء .

الأمريكي العملي

يؤمن تماما بأن الدنيا تسير ، وأن الرئيس الخامس والأربعين رئيس سبقة أربعة و أربعون رئيسا و سيتبعه رؤساء آخرون ، و أن ما يحدث الآن هو دليل حيوية تستدعي الإعجاب لا القلق ، وأن الناجح هو من يتأقلم لا من يحاول أن يفرض رأيه ، وأن الرئيس ترمب سيحصد مع الزمن إعجاب بعض معارضيه ، كما سيخسر بالطبع إعجاب بعض مؤيديه ، وأنه سينجح في فرض بعض رؤاه على نحو ما سيقبل ببعض ما يعارضه و يريد هدمه

الباب السادس

ضمانات في مواجهة الإسلاموفوبيا

الفصل السادس عشر

رقي القانون الدولي الإسلامي

لا شك في أن الرقي الذي بلغه القانون الدولي في الإسلام كان من الميادين التي استحوذت على إعجاب دارسي الفقه الإسلامي المنصفين ، على مدى حقبة عديدة ، وقد عني أحد فقهاء القانون المعاصرين وهو الدكتور عبد الحميد بدوي بالتعبير عن بعض ما يملكه الإسلام من ذروة عالية في هذا الميدان من خلال مقارنة القضايا الفكرية في ثقافة القانون والسياسة. ومن المفيد أن نستعرض بعض ما ذهب إليه هذا الفقيه القانوني في تناوله لهذا الموضوع بمجموعة من الآراء الأصيلة والفهم المستوعب .

حرية الرأي، وعدم الإكراه

تمكن هذا الفقيه العظيم من أن يبين مدى النجاح الذي حققه الإسلام في تنظيم العلاقات الدولية، ودعم التعاون الدولي في العصر الذي ظهر فيه، وما كان قد سيطر على هذا العصر من شعور كاذب بما يسمى السلم الروماني، فإذا بالإسلام يقدم صيغة جديدة للعلاقات الدولية تقوم على حرية الرأي، وعدم الإكراه في الدين والتسامح وهو على سبيل المثال يقول:

« يكفيني أن أذكر بأن العالم حين ظهر الإسلام نورا هاديا، وخيرا وبركة على الناس، كانت تسوده دولتا الروم والفرس، ولا ينكر أحد ما كان ينخر عظامهما من ظلم فاحش، وفساد منتشر، وكان العالم إذ ذاك يعاني السلم الروماني، وهو سلم بني على إخضاع الأمم الضعيفة، واستغلالها لمصلحته في إقامة أمن سلام... ».

« فكيف كانت سيرة الإسلام، ولو لم يكن يقوم به ويدعو له إلا فئة قليلة... ».

« هل مشي العرب بين الناس مصعرين خدودهم ينادون بسمو عنصرهم وحقهم في سيادة العالم، والسيطرة عليه، أم كان كل أمرهم أن يدعوا الملوك والأمراء إلى الرضا بحكم الدين الذي ذكرت لكم مبادئه في سياسة الشعوب، وفي حقوق الأفراد، وقليل من المقارنة بين حال البلاد التي دخلها الإسلام قبله وبعده، جدير بأن يظهركم على بطلان ما اتهم به الإسلام... ».

« وهل كانت نوازع دولة الإسلام حين استتب لها الأمر تقوم حيث قامت إلا على نظام بني على حرية الرأي، وعدم الإكراه في الدين، وتسامح متساهل ضربت بهما الأمثال... ».

«وهل كانت سيرة الإسلام تحرشا وتحكما واعتداء، أم كانت سلما ومهادنة وأمنا عادلا».

تطور ملامح العلاقات الدولية

وعلى نحو ما أبان الدكتور عبد الحميد بدوي عما قدمه الإسلام للإنسانية والعلاقات الدولية عندما ظهر إلى الوجود، فإنه استكمل بناء هذه الصورة برسم ملامح العلاقات الدولية في زمن تالي بعدما تقلصت حدود دولة الإسلام مترامية الأطراف:

«وهل كان تقلص ظل دولته المترامية الأطراف إلا إيذاناً بعهد مظلم طال ظلامه حتى طلع على الناس في عصر النهضة الصليبية، وكان المسلمون فيها مدافعين عن حماهم دون أن يذكروا أنها كانت دروساً في المروءة والشهامة والفروسية، وأنها كانت فتحاً جديداً على أوروبا بما أفاده الصليبيون من الاتصال بالشرق من علم وصناعة».

«ذلك هو شأن الإسلام في العلاقات الدولية جملتها، فإذا شئتم تفصيلاً مما تسمح به الدقائق المعدادات فلعلكم ذاكرون أن الدول الغربية ابتدعت في عهد غير بعيد شيئاً سموه القانون الدولي، ينظم علاقات الدول بعضها ببعض في شؤون الحرب والسلم، وذهبوا يتجادلون في سلطانه ولا يزالون في أخذ ورد بشأنه، والزيادة عليه، والإضافة إليه، يعملون به تارة، ويهملونه أطواراً، ولعله واصل بعد هذه الحرب إلى قدر يحمد من الثبات والاستقرار».

«وللإسلام أن يفخر بأنه منذ نشأته الأولى مضي يرسم آداب الحرب والسفارات وموعدها، وأصول العلاقات السلمية بين الدول، أما الحرب فقد جعل الإسلام يبين الأخذ بأسباب الوساطة والتوفيق وإصلاح ذات البين أولاً وآخراً، وواجب مناصرة من اعتدي عليه، وفي ذلك يقول الله تعالى: "وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله .."

«وإذا تركنا الجهاد جانباً إذ كان يقتضي بحثاً خاصاً لا يحتمل المقام، فإن الإسلام ينهي عن حروب الاعتداء، ولا يعرف إلا حروب الدفاع، ويوجب نصرة المعتدي عليهم، ويقول الله تعالى: "وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين"».

القواعد الفقهية الحاكمة للحروب

وفي وقت مبكر ألقى الدكتور عبد الحميد بدوي الضوء حول القواعد الفقهية والخلفية الحاكمة للحروب، وللحروب، وللحروب الدولية في الإسلام:

«وقد وضع الإسلام للحروب قواعد، ورسم لها آداباً، فحرم قتال النساء والأطفال، ونهي عن التمثيل والتعذيب والتشويه والتحريق، كما حرم قتل الرهائن، وفرق بين الجيوش المتحاربة وغيرهم ممن نسبيهم الآن المدنيين، وحرم منع المؤن والمياه عنهم، وعرف نظام المهادنة والأمان الذي يرفع عن المؤمن من صفة العداة فلا يحل التعرض له في حريته أو ماله، ويقول الله تعالى:

"وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه".
«وعرف الإسلام ما نسميه الحروب الأهلية، وهي ما سماه قتال أهل البغي، أي قتال الخارجين على الإمام، المخالفين للجماعة، ووضع لها سنناً [وأحكاماً] أرفق من حروب المقاتلين الذين لا يظلمهم ولاء واحد».

«وتفيض الكتب الإسلامية بالكثير من الأقوال المأثورة في آداب الحروب، وفي ذلك قول النبي عليه الصلاة والسلام: "لا تقتل امرأة ولا صبياً ولا كبيراً هرباً، ولا تقطع شجراً مثمراً، ولا تخرب عامراً، ولا تعقرن شاة إلا لمأكله، ولا تغرقن نخلاً ولا تحرقنه"».

وتناول الدكتور عبد الحميد بدوي بالنقد المهدب حديث الأوربيين المكرور والممرور عن أن الإسلام يقسم العالم إلى دار سلام، ودار حرب، مقدماً المفهوم الصحيح لهذا المعنى القانوني والفقهية المهم الذي أسىء نقده بأكثر مما أسىء استخدامه:

«وإذا كان الفقه الإسلامي يقسم العالم إلى دار سلام ودار حرب، فليس معني ذلك أن الإسلام يعيش أبداً في حالة حرب مع البلاد التي تجاوره أو تبعد عنه، والتاريخ يدل على أنه بعد أن نشر الإسلام دعوته عاش مع البلاد الأخرى في سلم وأمان».

فقه التعاهد في الإسلام

يلفت الدكتور عبد الحميد بدوي النظر إلى أن الإسلام نظم منذ مرحلة مبكرة مبدأ التعاهد بين المسلمين وغيرهم :

" ويقول الله تعالى: "إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ، وقد عقد النبي عليه الصلاة والسلام في مستهل عهده بالمدينة أول معاهدة مع أهل الكتاب».

«وحدث الإسلام على تنفيذ أحكام التعاهد، والقيام بالواجبات التي تفرضها بقوله تعالى: "وأوفوا بالعهد إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها"، ويقول النبي عليه السلام: "إلا مَنْ ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته أو أنقصه أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه، فأنا حججه (خصمه) يوم القيامة"».

«كما يؤثر عنه أنه قال: "مَنْ كان بينه وبين قوم عهد فلا يشد عقده ولا يحلها حتى ينقضي أمده أو ينبذ إليهم على سواء"».

«ومنذ بدأ الإسلام مضي على إرسال السفراء والمبعوثين واستقبالهم، وعرف ما لهم من حرمة بدأت بقول النبي عليه السلام حين جاءه مبعوثان من مسيلمة وفاها في حضرته بما أثاره "الولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكم ولم تزل تنظم تلك الحرمة والحصانة، وتزداد على مدي الأيام حتى بلغت مرتبة الإكرام».

الفصل السابع عشر

أطراف دالة من الجماعات الإسلامية المعاصرة

لا يمكن لمن يتعامل مع جماعات الإسلام النشطة أن يصل الى أحكام سليمة بينما هو يلبس كل جماعة من هذه الجماعات ثوب جماعة أخرى و بينما هو يخلط بين الطوائف والاهداف والمناهج وهذه إذاً محاولة سريعة لفهم علمي وعصري للفروق التقريبية بين الجماعات الأكثر وجودا أو الأكثر حضورا في ساحة العمل الإسلامي سواء في ذلك العمل السياسي الإسلامي أو العمل الإسلامي الخيري المُتجنّب للسياسة بكل ما يُمكن له التجنب من تصريح وأداء.

الإخوان المسلمون والجمعية الشرعية

نبدأ بالفرق بين جماعة الإخوان المسلمين (التي هي أكبر الجماعات الإسلامية) والجمعية الشرعية لتعاون العاملين بالقرآن الكريم والسنة المُحمّدية ، التي هي أكبر الجماعات غير العاملة بالسياسة، وأكبر الجماعات العاملة بالعمل الخيري ، ونقول إن هذا الفرق هو نفسه الفرق بين الرؤية والرسالة ، فالجمعية الشرعية هي الرؤية الواسعة المُتسّعة ، أما الإخوان فهي الرؤية بعد أن تحوّلت إلى رسالة أو بلفظ أدق إرسالية أو مهمة.

الجمعية الشرعية و أنصار السنة المُحمّدية

أما الفارق بين الجمعية الشرعية وجماعة أنصار السنة المُحمّدية التي واكبتها في النشأة وفي الاستحواذ على بدايات الشارع السلفي ، فهو الفارق في العلاقة بالسنة المُحمّدية ، فعلى حين تعتبر جماعة أنصار السنة أن السنة هي الغاية والنهاية وأنها مَعنية بتطبيق السنة وأتباع السنة في المظهر وفي السلوك ، فإن الجمعية الشرعية تُعتبرُ هذه النقطة بمثابة نقطة البداية في نشاطها الذي يقوم على تعاون من يلتزمون بالسنة المُحمّدية، وهكذا فإنها تُعمدُ إلى السنة لتكون نقطة بداية تجمع أعضائها في سبيلهم إلى التعاون.

وربما نتوقف هنا لنفخر بالنيابة عن الجمعية الشرعية بأنها حققت نجاحا عالميا مبكرا ، وليس مصرياً فحسب ، في الأخذ بفكرة التعاون كفكرة مثلى بديلة للنظامين الرأسمالي والشيوعي معاً، وقد بدأ العالم ينتبه إلى فكرة التعاون والجمعيات التعاونية نظريا وعمليا منذ أوائل القرن العشرين، ثم كانت الجمعية الشرعية على غير توقُّع من أحد هي أنجح نموذج لاقتصاد التعاون في المنطقة الإسلامية كلها مُنطلقة من أساس روحي مثلته تعاليم القرآن الكريم والسنة المُحمّدية ، ومع هذا فإنها في ظل حرصها المعهود لا ولن تتحدث عن هذا النجاح الساحق .

الإخوان المسلمون والجماعة الإسلامية

أنتقل إلى الفارق بين الإخوان المسلمين والجماعة الإسلامية المعروفة الآن بحزب البناء والتنمية، ومع أن نشأة الجماعة الإسلامية في السبعينات كانت متواكبة مع أولئك الذين يُعرفون الآن بأنهم الجيل الجديد من الإخوان المسلمين ، فإن الفارق الجغرافي الذي صورّه هؤلاء وهؤلاء هو أن الجماعات الإسلامية في جامعات الصعيد (الوجه القبلي) احتفظت لنفسها باسم الجماعة الإسلامية ، على حين أن الجماعة الإسلامية في العاصمة والوجه البحري القريب من القاهرة عُرِفَت على أنها أصبحت تجديداً للإخوان المسلمين .

وعلى صعيد ثالث مالت الجماعة الإسلامية في الإسكندرية وما يُجاورها من البحيرة ومرسي مطروح وبعض مناطق كفر الشيخ إلى أن تتحد مع بعض الجماعات السلفية أو تجددها . وهنا نسأل عن الفارق الواضح بين الجماعة الإسلامية (حزب البناء والتنمية) والإخوان المسلمين و (حزب العدالة والتنمية)، فنلاحظ بمنتهى السهولة أن الجماعة الإسلامية اضطرتها الظروف إلى الاندفاعات والمراجعات ، على حين ظَلَّت الإخوان بتجربتها التاريخية في نطاق المشروع الذي هو مُحدّد المعالم لأصحابه بعيداً عن الاندفاعات وبعيداً عن المراجعات.

الإخوان المسلمون وحزب الوسط

على صعيد آخر ، نبحثُ عن الفارق بين الإخوان المسلمين وحزب الوسط فنجدُ الفارق بارزاً في تقنيات الري والغذاء التي اختلفت ما بين الحالتين ، فعلى حين نشأت الإخوان في مجتمع مرحب بها يستمتع بتيار النيل المُتدفّق بكل ما في تدفّقه من عُفوان وخير وماء وطمى وترسيب ، فإن حزب الوسط اعتمد على التثقيط أو على ما يتمثل به الحال في الصوبات الزراعية ، فقد نشأ في بيئة مُعادية للمشروع الإسلامي ، بل والمشروع السياسي من الأساس، وكانت هذه البيئة الزمنية التي نشأ فيها حزب الوسط حريصة على المُجاهرة بهذه العداوة حتى في نصوص القوانين التي تمنع الأحزاب ذات الطبيعة الإسلامية (أو بالهروب من هذا النص الواضح إلى تعبيرات من قبيل الصبغة الدينية) .

وعلى حين استطاعت جماعة الإخوان في بدايتها إشهار نفسها في نفس اليوم الذي بدأت فيه ، فإن حزب الوسط أمضى سنوات طويلة و مُمتدة دون أن يحصلُ على الإشهار ، حتى حدثت ثورة يناير ٢٠١١ فأشهر نفسه، وهكذا كان هذا الإشهار أو الوجود القانوني عزيزاً على قيادات الحزب إلى درجة تجعل من رأي بعضهم أن القبول بالأمر الواقع ضرورة جوهريّة كي لا يخرج كيانهم من الأمر الواقع.

جماعات الإسلام السياسي السعودية

ومع هذا ، فإن الإخوان والجماعة الإسلامية وحزب الوسط يبقون في ناحية من الشاطئ بينما جماعات الإسلام السياسي السعودية في شاطئ آخر ، وقد لجأنا إلى هذه التسمية لسبب واحد ، هو أن السعوديين الجدد أصبحوا يستغرقون أكثر من تسعين في المائة من وقت المناقشة في نفي الوهابية عن الوهابية أوفي نفي الماضي عن الماضي ، ولهم العذر في هذا ، وهم يضطرون أنفسهم للقول بأنهم لا يقبلون أصلاً بقيمة علمية أو عملية لفكرة المصطلح ولا بفكرة التسمية، ولهذا السبب فإننا سنلجأ إلى هذا الاسم العمومي أو الرمزي الذي ربما يتقبلونه على مضض ، بينما هم يرفضون مُسمّى الوهابية بصورة جازمة .

معاملة المجتمع في السعودية وفي مصر

ونعود إلى موضوعنا وهو الفارق بين هذا التعامل الإسلامي مع المجتمع في السعودية وفي مصر ، والفارق بسيط جداً يتمثل في الفارق بين الكوبري السطحي الذي يعبر النهر والكوبري العلوي الذي يعبر نفس النهر فالكوبري السطحي يعوق حركة السفن ، كما أنه يعوق الحركة أمامه وخلفه ، حتى يتمّ سريان المركبات العابرة له ، أما الكوبري العلوي فيكفل في تطويراته المختلفة أن يتمّ عبور السفن من تحته وأن يتم عبور السيارات والمركبات في طريق الكورنيش على يمينه وعلى يساره .

وهكذا يُصبح الكوبري العلوي وسيلة لا تعوق حركة أصلية من حركات المجتمع على نحو ما يعوقها الكوبري السطحي الذي هو أصدق تصوير لما هو حادث في بعض تجليات تطبيق قواعد الإسلام السياسي السعودي (الموجودة خارج السعودية) ، سواء في الماضي أو في الحاضر ، بل وفي المستقبل.

الافتراق بين الاجتماع والاقتصاد

ومن العجب العجيب أن هذا التوجّه السعودي في معالجة قضايا المجتمع كان على النقيض تماماً من توجّبهم الشرعي لقضايا الاقتصاد والمعاملات المالية ، والتي أتاح لها الفقه السعودي المعاصر قدراً من الحرية لا يتوافر حتى في الرأسمالية المتوحشة ولا في الليبرالية الجديدة، وكان لهذا الفهم الأثر الأكبر في النمو الاقتصادي السعودي ، وهو أثر فاق في تأثيره كل ما هو مكرر و مقرر و مكرور من الحديث عن ضخامة وجسامة الثروة البترولية والاحتياطي البترولي للسعودية . ومن المدهش أن التحليل الاقتصادي البسيط قادر على أن يثبت لأي دارس أن الآليات الإسلامية الحرة التي عمل بها الاقتصاد الإسلامي السعودي هي السبب الأول لارتقاء الثروة ، وأن البترول وغيره قد يكون هو السبب الثاني رغم أسبقيته ، وأن السبب الأول الذي نتحدث عنه كان بمثابة العدد الذي احتل خانة الآلاف ، بينما كانت الثروة المُتاحة في خانة العشرات أو المئات فحسب .

الفصل الثامن عشر

الإجابة على أسئلة طرحها من أدى دور الأمير

الحوار الافتراضي

أبدأ هذه المدونة بداية سريعة فأشير إلى أن مراكز البحوث الأمريكية تعرف أسلوباً للمختبرات السياسية التي تصمم حواراً افتراضياً بين أطراف مختلفة أو متصارعة من أجل الوصول إلى مشروع تسوية مقترحة، وقد اشترت في كتابي «شمس الأصيل في أمريكا» منذ ربع قرن إلى أن هذا حدث قبل كامب ديفيد نفسها.

استيعاب التوجهات المعارضة

في هذا الإطار فإن الأمريكيين وأصحاب المصلحة في تولي ولي العهد السعودي للعرش بدأوا منذ مدة في إعداد دراسات شبيهة تستهدف إلى محاولة استيعاب التوجهات المعارضة لخلافته بعد أن ظهر بوضوح أن هذه التوجهات المعارضة تتمتع بنطاق واسع وعريض حتى وإن لم يكن في يدها سلاح تقاقل به.

قام مجموعة منتقاة من الباحثين في شئون الشرق الأوسط ببلورة الخلافات التي تفرض نفسها على أجندة ولي العهد السعودي و صاغوا بروتوكولا بحثيا موسعا على نحو تطبيقي سريع من خلال :

- استعراض تاريخي يؤيد وجهة نظره.
- ثم سؤال مباشر يوجهه من يقوم بدور ولي العهد على أنه ولي العهد بنفسه إلى مفكر (يشترط فيه أن يكون من المفكرين المرموقين الملمين بالوضع كله والحاضرين للواقع على نحو ما هو قائم بالفعل) يطلب منه أن يمثل دور المعارضة .
- ويُجيب المفكر على سؤال ولي العهد إجابة مباشرة ومختصرة لا تتجاوز نفس الوقت الذي يطرح فيه نموذج ولي العهد (أي من يؤدي دوره في حوار الورشة) مقدماته وسؤاله.

حالة بشار الأسد

وعلى سبيل المثال فإن السؤال الأول ينبنى على أهمية الاستقرار وتولي ولي العهد (أو الرجل الثاني في أي نظام ملكي أو جمهوري) المسؤولية بسلاسة ودون معارضا... والمعنى مفهوم لكن السؤال الذي اختار الباحثون الأمريكيون أن يضعوه على لسان ولي العهد كان هو ما الفرق بيني وبين بشار الأسد؟ ومن الواضح أن ذكاء السؤال يعتمد على فكرة أنه حتى في النظم الجمهورية - القومية فقد تحقق انتقال السلطة للابن على نحو ما رسمه الأب أو الحاكم المتصرف.

حتى لا نشغل القارئ بكثير من التفاصيل النظرية فسوف نلخص نموذج الحوار الذي دار بين ولي العهد السعودي وبين واحد من ألمع المفكرين العرب لا يُمكن وصفه بأنه مؤيد لولي العهد السعودي حتى وإن لم يكن معارضا صريحاً له، لكنه صاحب كتابات وآراء تحفل بكثير من التحفظ على سياسات وممارسات المعسكر المحيط بولي العهد منذ تولي منصبه.

كان السؤال الأول على نحو ما أسلفنا هو ما الفرق بيني وبين بشار الأسد؟ الذي تولى الرئاسة بسلاسة في ٢٠٠٠ أي منذ عشرين عاماً! إجابة المؤرخ كانت من جملة واحدة وهي أن الفرق يتمثل في محطة جمال مبارك في ٢٠١١.

حالة جلالة الملك فهد

السؤال الثاني طويل المقدمات ومتعدد الجبهات لكن المصممين للحوار حرصوا به أن يدمجوا فيه مجموعة من الأسئلة في سؤال واحد فقط ، حتى لا تتكرر مناقشاته ، فتبدو نقداً للحالة الراهنة في كل إقليم عربي على حدة ، و كان السؤال يتعلق بالعلاقات العربية السعودية ، ودور المملكة في سوريا لبنان والعراق واليمن وليبيا وغيرها >

و على عكس بقية الأسئلة العشرة فقد كان مطلوباً من نموذج ولي العهد أن يعلن عن تصميمه مبدئياً على الاستمرار في الوقوف مع النظام الذي تولد بالانقلاب العسكري المصري باعتباره ورث سياسة سعودية شاركت في صنع الانقلاب ، حتى وإن اعتبر هذا الموقف في نظر جموع العرب والمسلمين وقوفاً ضد الشعب المصري ، ومع إدراكه [المستتر والمكتوم] للصعوبة القائمة في وجه من يضع نفسه ضد إرادة أغلبية أكبر شعب عربي (من حيث السكان والتأثير) في أن يقنع أحداً بأنه مع الشرعية حتى لو كان معها (بالفعل) في اليمن أو (بالبدايات) في سوريا أو (بالرغبة والنية) في لبنان ذلك أن القرار السعودي الذي ورثه ولي العهد ولم يشترك في صنعه اختار تصنيف موقفه بأنه مع الثورة المضادة!

ثم حانت فرص كثيرة للخروج من هذا التصنيف حتى بدون الانتقال إلى معسكر الثورة فلم يبذل نظام ولي العهد أية فرصة في التفاعل معها على أي وجه وبدا خائفاً منها مترهباً لها، كما كان الحرص على التصريح بالموقف الداعم للنظام المصري يصنف القرار السعودي على أنه مجرد تيار من تيارات الثورة المضادة حتى لو كان أهم هذه التيارات .

وكان سؤال ولي العهد بعد إيضاحاته (التي بدت متمسكة بالسياسات السابقة) واضحاً وطموحاً وهو ما الفرق بيني وبين عمي الملك فهد الذي لم يغير سياسات سابقة [كمقاطعة مصر] ومع هذا فإنه كسب تحالفات جديدة ؟ بما في ذلك نظام الرئيس مبارك الذي لم يكن الا استمراراً لنظام الرئيس السادات الذي وجهت له وضده المقاطعة !!

و كانت الإجابة التي لخصها المؤرخ كلمة واحدة ذات مفردات مترادفة هي : رابعة ، بكل ما تشير إليه من مرادفات: عشرة آلاف شهيد ، و مائة ألف في الزنازين ، و رئيس مخطوف شهيد ، و شعوب ناقمة و أدبيات عميقة التأثير و وضع كارثي لا يزال يتفاقم .

حالة جلالة الملك فيصل

لسؤال الثالث كان يتعلّق بما يُمكن وصفه بالانفتاح المجتمعي وهنا يسأل ولي العهد ما الفرق بيني وبين عمي جلالة الملك فيصل؟ وكانت إجابة المؤرخ أيضاً في جملة واحدة وهي أن الفارق يكمن في جلالة الملكة عفت حرم الملك فيصل.

حالة الملك عبد العزيز آل سعود

السؤال الرابع كان يتعلّق بما يُمكن تلخيصه بأنه العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية وهنا يسأل ولي العهد ما الفرق بيني وبين جدي الملك عبد العزيز آل سعود؟ وكانت إجابة المؤرخ من كلمة واحدة وهي أن الفرق يكمن في إزالة الرئيس الأمريكي ترمب للقناع، وهو فعل لا بد لا بد له من رد فعل لم يحدث حتى الآن.

حالة رئيس كوريا الشمالية

السؤال الخامس كان يتعلّق بتعجب ولي العهد من كثرة الأضواء حول قضية جمال خاشقجي وحقوق الإنسان والسجينات.. الخ وكان سؤال ولي العهد ما الفرق بيني وبين رئيس كوريا الشمالية وكانت الإجابة أن كوريا الشمالية ليس لها خمسة آلاف مبعوث يدرسون في أمريكا ولا أموال مودعة ولا استثمارات تسيل للعباب للاستيلاء عليها تحت أي شعار .

حالة الرئيس جمال عبد الناصر

السؤال السادس كان يتعلّق بالاهتمام الشعبي الزائد من وجهة نظر ولي العهد بشخصيات مثل الدكتور سليمان العودة وكان السؤال واضحاً ما الفرق بيني وبين الرئيس جمال عبد الناصر في حالة سيد قطب على سبيل المثال وكانت الإجابة بكلّ وضوح إن الفارق يكمن في تركي الشيخ (والمقصود بالطبع هو ممارسات هيئة الترفيه ومواكبتها لتبريد و تجميد هيئة الأمر بالمعروف).

حالة الملك خالد

السؤال السابع كان يدور حول قسوة مطالب الصين والهند والباكستان واندونيسيا وماليزيا من المملكة، وكان سؤال ولي العهد السعودي واضحاً وهو ما الفارق بيني وبين عمي الملك خالد على سبيل المثال؟ وكانت الإجابة من كلمة واحدة، وهي المبادرة التي كان عهد الملك خالد يبادر بها قبل أن يطلب منه شيء.

حالة الملك عبد الله

السؤال الثامن كان يدور حول قضية فلسطين وكان سؤال ولي العهد صريحا بأكثر من اللزوم حيث قال ما الفرق بيني وبين عمي الملك عبد الله؟ وكانت الإجابة تتمثل في كلمة واحدة هي الصياغة ، والمقصود أن ما قام به الملك عبد الله من مبادرة عربية للتعامل مع الكيان الصهيوني جاء بعد صياغات محترفة قام بها صحفيون ومُنسّقو علاقات عامة كان أشهرهم توماس فريدمان.

حالة الأعمام جميعا

السؤال التاسع كان يدور حول الأزمة الخليجية، وكان سؤال ولي العهد السعودي متردداً لكنه طرحه على استحياء فقال ما الفرق بيني وبين أعمامي جميعا في العلاقة بقطر؟ وكانت الإجابة باختصار الفرق يكمن في سمو الأمير محمد بن زايد وزير دفاع الإمارات.

حالة الرئيس حافظ الأسد

كان السؤال العاشر والأخير عن سبب استقبال حماسه و تطويره ببرود على الرغم من ثورته وإنجازه وامتداد أصابعه إلى كل جيرانه وكان السؤال عن الفارق بينه وبين الرئيس حافظ الأسد الذي كان وزيرا للدفاع قبل أن يستولي على الرئاسة على الرغم من أنه كان مشاركا في ضياع وطنه وعلى الرغم من انه لم يكن يتمتع بما يتمتع به هو الآن من جرأة وجسارة وحسم وكانت الإجابة ، هي ٥ يونيو ١٩٦٧ التي لا يريد أحد لها أن تتكرر مهما كنت ستتحمل أعباءها وحدك! وفيما يبدو فإن ولي العهد السعودي اقتنع بالإجابات العشرة حتى وإن لم يكن راغبا في الأخذ بها.

الباب السابع

مفاهيم مغلوبة في علاج الإسلاموفوبيا

الفصل التاسع عشر

الفاشية التي يشوهون بها الإسلام السياسي

هجوم متكرر

أصبح من الثوابت و المأثورات في الفكر اليساري العربي الحديث أن يُهاجم اليساريون التقليديون (ومن يزعمون أنهم تعلموا منهم) جماعة الإخوان المسلمين وجماعات الإسلام السياسي بالباطل والحق ، ويُشارِكهم في هذا من يعرفون ويقدمون أنفسهم على أنهم عبيد فكرة الدولة ممن يؤدون دوراً محدداً ومحصوراً وهو محاربة الإسلام وفكر الإسلام و أهل الإسلام ، رافعين قميصاً يقول إنهم تيار مدني .

ويتكرر هذا الهجوم بطريقة روتينية صماء و كأنه أصبح من البديهيات أو المسلمات في كتابات الساسة والصحفيين العرب الذين يدعون اليسارية بدرجاتها المختلفة (الماركسية والشيوعية والاشتراكية والتروتسكية والماوية) كما ينتقل هذا الهجوم برشاقة الرقص إلى تراث التجارب الوهمية المشوهة لليسار من قبيل كتابات الناصريين المحصورين في زاوية ضيقة ، وينحصر هذا الهجوم في قولهم إنهم ضد الفاشية الدينية، ويبدو هذا التعبير المتأنق أو المتحذلق وكأنه يُلخّصُ مذهباً سياسياً أو يُبلورُ صراعاً سياسياً ، بينما الحقيقة أنها عبارة تليفقية ليس لها من الحقيقة إلا جاذبية المصطلح الكاذب.

لكننا مع هذا لا بد أن نعرف كيف نشأت مثل هذه الدعوى التي لا يزال أهل اليسار يهربون إليها هم ومن يتشبهون بهم بالباطل.

موسوليني و الدين

نبدأ بأراء الزعيم موسوليني نفسه في الدين وبما قاله هو نفسه عن نفسه في مذكراته ، ثم ننتقل إلى مناقشة قضية سياسية وتاريخية طريفة .

كان الزعيم الإيطالي و الفاشي الأكبر موسوليني يقول : إنه يضيق صدره من سماع التراتيل الإنجيلية ، وأن هذا الشعور لازم منذ صغره ، بل أنه يروي أنه كان يتقياً إذا ما شم رائحة بخور الكنيسة عندما كان يذهب مع والدته إلى الكنيسة لأداء صلاة الأحد ، وكان لا يطيق رؤية رجال

الكنيسة بملايسهم السوداء، بل إنه قال بمنتهى الصراحة : ورثت عن أبي الإلحاد في حين لم تتمكن شفافية أمي المتدينة من النفاذ إلى سريرتي .

الشيوعية أصبحت وكأنها دين

ونعود للتاريخ الكاشف ، فنحن نعرف أن الشيوعية نجحت عقب الحرب العالمية الأولى في الوصول إلى الحكم في روسيا ، وتأسست على يديها دولة الاتحاد السوفييتي، وأصبحت الشيوعية بفضل هذا النجاح بمثابة مذهب أثبت وجوده ونجاحه، بل تخطت الشيوعية حدود المذهب إلى أن أصبحت وكأنها دين أو بديل للدين، دعت من انهيار الشيوعية وانهيار الاتحاد السوفييتي نفسه بعد ذلك، فلم يكن الذين يتعاملون مع الأمر الواقع في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي يبنون حساباتهم ولا تعاملاتهم على مستقبل لم يتوقعوه بانهيار الشيوعية ، لكن الروح القومية في إيطاليا وألمانيا وإسبانيا ودول أخرى قادت إلى نشأة ما كان يمكن تسميته بالفاشية [الإيطالية] ، والنازية [الألمانية] الخ.

الشيوعيون و الحركات القومية

عند هذا الحد ، بدأ الشيوعيون يخشون من تهديد هذه الحركات القومية القوية الممتدة والواحدة ، وبدأوا يُشوّهون صورتها، وكانت أبرز هذه الوسائل هي اللجوء إلى القول بأن الفاشية والنازية لا تعرفان الديمقراطية، وكأنهم هم الذين يعرفونها ، وقد حدث هذا بينما كانت الشيوعية نفسها تُؤسس في الوقت ذاته لديكتاتورية الحزب الواحد.

في ذلك الوقت كان المثقف البسيط ، سواء في ذلك العربي أو غير العربي ، لا يرى فرقاً واضحاً بين الشيوعية والفاشية، لكن الشيوعيين كانوا يرون الفاشية عدوة خطيرة وشديدة العداوة للشيوعية، وهكذا عرف الوعي السياسي العربي أحاديث مُتصلة و متكررة يتّهم فيها الشيوعيون كل ما هو ناجح في التعبئة الشعبية تحت شعار الوطن ورايته بأنه فاشي.

معارك الشيوعية والفاشية في إسبانيا

في أوروبا كانت أبرز معارك الشيوعية والفاشية في إسبانيا، وتمكن الجنرال فرانكو (١٨٩٢-١٩٧٥) بمعونة من الزعيم هتلر و الزعيم موسوليني أن يُسيطر على الأمور في إسبانيا مُقَدِّماً نموذجاً للقُدرة على الانتصار على الشيوعية من دون اللجوء إلى الرأسمالية أو الليبرالية أو الديمقراطية، ومن الطريف أن الجنرال فرانكو ثبت تجربته المرحلية هذه بقراره الذكي أن يُعيد إسبانيا إلى الملكية والديموقراطية ، فجهز الأمير خوان كارلوس (المولود ١٩٣٨ و والد الملك الحالي فيليب السادس المولود ١٩٦٨) ليكون ملكاً لإسبانيا بعد وفاته هو ، وهكذا عادت الملكية إلى إسبانيا بنهاية عهد الجنرال فرانكو و مع وفاته في ١٩٧٥ .

الفاشية في مصر

أما في مصر التي كانت عاشت تجربة ليبرالية مُتميّزة (١٩١٩ - ١٩٥٢) رغم تشويه بعض أبنائها لتاريخها وإنجازاتها ومكانتها وسمعتها العالية ولما سبقتها من تجربة شبه ليبرالية مُتميّزة (١٨٦٦ - ١٩١٤) فإن مصطلح الفاشية عند الشيوعيين انصرف في البداية إلى وصف جماعة أحمد حسين "مصر الفتاة" ووصف حزب مصر الفتاة الذي كانت الجماعة قد تحولت إليه. ومن الطريف أن هذا الحزب (وهذه الجماعات) رفعت في بعض الأحيان شعارات إسلامية فاصطدمت بها جماعة الإخوان المسلمين ، وصورتها يسارا ثم رفعت شعارات اشتراكية فاصطدمت بها الأحزاب الشيوعية و صورتها يمينا . وهكذا يُمكن لأي باحث تاريخي أن يُفسّر الوصف الاشتراكي أو الإسلامي في بعض تصرّفات أو توجّهات مصر الفتاة على أنه كان تعبيرا عن ميول زعماء هذه الجماعة دون أن يكون لهذه التوجهات علاقة بالفاشية التي اقتدت بها هذه الجماعة في الشكل الذي اتخذته أو البرنامج الذي طرحته أو استهدفت أن تكون تقليدا له.

مشاعر كراهية الإسلام

ومع هذا ، فإن اليساريين المحدثين وجدوا في هذا اللفظ ما يرضي مشاعرهم في كراهية الإسلام ، فأخذوا يُردّدون جُمَلتهم الشهيرة أنهم ضد الفاشية العسكرية وضد الفاشية الدينية معا ، وهم لا يُردّدون هذه الجُملة إلا حين يضطرون أنفسهم لخدمة العسكر بكل خباثة والتواء ، و من ثم يعيشون تحت أقدامهم ويشكرونهم على الفئات الذي يقذف به لهم العسكر في قليل من الأحيان بطريقة مُهينة.

الفصل العشرون

المستقبل الحائر لمشروع السلفية الوجودية

موقف يساري مريب

تتوالى وتتنامى الخطوات التي تفرضها بعض السلطات العربية على شعوبها للخروج من هويتها الدينية تماما مع الاحتفاظ بعنصر واحد هو طاعة ولي الأمر ، و تتسارع هذه الخطوات بمعدل لم يعرفه أحد من قبل في تاريخ التحولات الاجتماعية ، و يتكاتف اليساريون القدامى بطريقة مريبة في سبيل الدعوة إلى تأييد هذه التحولات باعتبارها كفيلا بهدم مجتمع تقليدي وإن كانوا بالطبع لا يعترفون بهذا مؤثرين الحديث الذي يتظاهر بالغناء للحرية من القيود الاجتماعية .

الإغراق في فنون قتل الوقت

سئلت أكثر من مرة عما أعتقد حدوثه من معقبات متوقعة لهذه السلفية الوجودية المراد فرضها في المجتمعات الإسلامية؟

قلت إنها هي نفسها تلك المعقبات التي انتشرت في فرنسا على يد الوجوديين حين انصرفوا بسبب الفلسفة الوجودية إلى الإغراق في فنون التسلية وقتل الوقت في منتوجات فنية من قبيل السينما والرقص لا ليمارسوا ثقافة وإنما ليمارسوا الكسل ، و ليمارسوا المتعة المرتبطة بالكسل ، بحثا عن الضحك على سبيل المثال ، أو عن تجاوز الأخلاق التي كانت مفروضة من قبل بدعاوى مجتمعية من قبيل الحسبة ، والأمر بالمعروف ، وكأن هيئة الأمر بالمعروف كانت تمثل للسعوديين البرجوازية التي لا بد من الفكاك منها.

أهمية ما يحدث في السعودية

ويبقى سؤال آخر : لماذا يشغل الغرب نفسه الآن بكل هذا الذي يحدث في مجتمع كالمجتمع السعودي ؟ ولماذا يحرص على معاداة أي صعود واقعي للقيم الإسلامية في ليبيا أو في تركيا ، ولماذا يسارع إلى معاداة كلّ توجه وطني له علاقة بالأخلاق الكريمة ؟ ولماذا يسارع إلى الترحيب بكلّ توجه مرتبط بالعمالة وخيانة الوطن والهوية؟

و ببساطة شديدة فإن السؤال هو : لماذا الآن مع أن هذا لم يحدث من قبل ؟
و الإجابة ببساطة شديدة هي أن الغرب (بلغة الاقتصاد أو حتى بلغة السوق) يدافع عن نفسه وعن وضعه المتميز بعد ان انتبه الشرق بفضل الربيع العربي.

آليتان مرتبطتان : الإعجاب والدفاع

وهنا لابد لي من أن أشير إلى خاصية عقلية بشرية تضمن تلازم آليتين تبدوان متناقضتين لكنهما تكتملان : الآلية الأولى هي الإعجاب بالآخر المتفوق و الآلية الثانية هي الدفاع عن النفس ضد ما قد يجلبه تفوق الآخر .

فإذا ما طبقنا هذا الفهم فبوسعنا أن ندرك أنه بقدر ما رأى العالم من إيجابيات ومثاليات في الثورة المصرية في ٢٠١١ وبدأ زعماؤه يطالبون شبابهم بالاعتداء بها ، فإنه أي الغرب نفسه من ناحية أخرى بدأ سعيه الحثيث لوأد هذه الثورة في مهدها بالتلازم مع كان يدعو إليه من استلهاهم روحها في أرضه هو.

التقنيات التي استسهل الغرب اللجوء إليها

بدأ الغرب يجاهد نفسه من خلال اليمين المتطرف ، بل وحتى من خلال التفكير في العودة إلى الاستعمار والعهد الكولونيالي لكنه في الوقت ذاته بدأ يبحث في قيم الإسلام نفسه على كل ما قد يفيد أعداء الإسلام ، وعلى ما قد يؤذي المسلمين في صعودهم فيؤخر هذا الصعود . وليس من شك في ان النمط الأول موجود ، وكذلك النمط الثاني ، ففي التطوير الأخير للسلفية تتبدى و تتجلى كلّ مؤهلات القابلية للاستعمار ، وكل مبررات التخلي عن الإسلام من أجل حياة ذليلة وإن كان ظاهرها السلام..

دور مختلف للأبوية البطريركية

ومع أننا نعرف من علم الباثولوجيا أنه في مثل هذا التطوير الأخير (والشاذ) للحياة الاجتماعية في ظل سيطرة الدولة الأبوية أو البطريركية (الفاصلة) فإن الأب لا يمارس الدور الطبيعي للأبوية البطريركية الراحية الناصحة المهذبة ، ولكنه يقود بنفسه عمليات الإفساد ، كما لو أنه ليس الأب وإنما الوصي على اليتامى الذي لا يمكنه الاستمرار في استحلال ونهب أموال هؤلاء اليتامى إلا بتحويلهم إلى أشخاص غير راشدين و قاصري العقل ومن ثم فإنهم لا يستغنون عن ولي أو وصي أو ولي أمر يظل له (مهما كان اسمه وشخصه) حق التصرف في أموالهم (حتى فيما يؤذيهم) دون أن يكون لهم هم أي حق في هذه الأموال إلا من خلاله هو بنزواته قبل رشده، وبأطماعه قبل أمانته!

الغرب وتوظيف قيم الإسلام

يحدث هذا في الوقت الذي يحرص فيه الغرب الراشد على أن يطور إفادته من كل قيم الإسلام بدءاً من الرشادة المالية وخفض سعر الفائدة إلى صفر % وبدءاً من الانتماء للأخلاق الإسلامية في الطهارة و المؤاخاة و التكافل تدريجياً حتى بدون الحديث عن مثالياتها..

وبدءاً من فكرة الولاء والبراء التي رفعها السلفيون وسرعان ما تخلوا عنها.. الخ، ليبيني عليها اليمين المتطرف الحالي في أمريكا وأوروبا نظريته الفلسفية والسياسية الحديثة.

تجلي الوجودية في نوعين

كنت كثيراً ما أُلخص لأصدقائي من الأطباء المثقفين (محبّي الفلسفة الذين يفوقوني فهما لها واطلاعا عليها) بعض ما أفهمه من الفلسفة حين أترجمها بلغة الإسلام البعيدة عن علم الكلام ، ومن ذلك أنني كنت أُلخص الوجودية في نوعين، نوع يميل إلى الإلحاد مع العلم على نحو ما قدمه سارتر وأمثاله ممّن نقل عنهم كثيرون من فلاسفتنا وكتابنا عن إعجاب أو عن استسهال، ونوع آخر يميل إلى الجمع بين العلم والإيمان دون أن يجد منبعاً واحداً مشتركاً للعلم والإيمان..

فكرة الجمع بين العلم والإيمان

وقد عرف الغرب كثيرين من الذين مالوا إلى هذا التوجه دون ان يعني مثقفونا بالنقل عنهم أو التعريف بهم، وفي مقدمة هؤلاء باسكال نفسه (١٦٦٣ - ١٦٦٢) الذي يعده بعض الوجوديين اول من قال بالوجودية. ومن هؤلاء الكاتب المسرحي جيريل مارسيل ١٨٨٩-١٩٧٣ الذي يناظر في عمره وحياته ومماته الدكتور طه حسين ١٨٨٩-١٩٧٣ .

لكن هذا وذاك كانا يفتقدان الصرامة الفلسفية التي تتعالى حتى على الإيمان والتدين ولهذا فإن الدكتور عبد الرحمن بدوي حين قارن بين مارسيل وبين ثلاثة آخرين من رواد الوجودية المعاصرين وصف منهجه بأنه متهمل التفكير ولم يكن هذا تعبيراً عن كراهية للإيمان بقدر ما كان تعبيراً أو انطلاقةً من صرامة النظرة الفلسفية ، واستعلائها المعروف على كل تدين أو على كل تفكير في التدين

الفصل الحادي والعشرون

وجودية متطرفة تفرضها جماعة كانت سلفية

تناقض فكري

لست أبالغ حين أقول إن أحداث الربيع العربي وما تلاها من تكثيف التآمر والتمويل اللذين مارستهما حكومات الثورة المضادة من أجل تفعيل جهودها في وأد هذا الربيع في ٢٠١٢ خلقت حالة تناقض فكري غير مسبوق في السياسة الدولية ، وكانت هذه الحالة بحكم ظروفها قادرة على أن تولد حالة فلسفية جديدة ، ومع أن التاريخ الإنساني عرف حالة شبيهة مع الثورة الفرنسية و موقف الممالك الأوربية منها فإن الثورة العربية المضادة كانت ذات خصائص شاذة وغير مسبوقه

و لست أبالغ حين أقول إن أربعة من العوامل تضافرت لتخلق فلسفة كونية جديدة و مشوهة ، وتمثلت هذه العوامل الأربعة في :

- نزق بعض أثرياء العرب ، وهو نزق مفرط بقدر ما إن الثراء مفرط هو الآخر
- وضعف علاقتهم بهويتهم الدينية
- وتشبثهم الطفولي بأوضاعهم الاستثنائية
- وهلعهم مما ينتظرهم من مصير في حالة انبعاث النهضة .

فلسفة كونية

كان تضافر هذه العوامل الأربعة و تآزرها و ما ترتب علي هذا التضافر و التآزر من تجليات سياسية وحيدة التوجه سبباً رئيساً في انبعاث حالة فلسفية كونية جديدة لم يتوقع أحد أن تكون نتائجها على نحو ما تحققت بوضوح مبين ، فقد جاءت هذه الفلسفة لتُعلي من قدر الدين ، وتدفع دفعاً إلى الإيمان بالدين ، والتعويل عليه ، بل تحكيمه والتحكم به أيضاً .

وعلى خلاف ما حدث من نشأة للفلسفة الغربية الحديثة في محاولاتها لتخطي الدين أو معاداته فإن الفلسفة الشرقية الصاعدة الآن والتي يُطبقها الغرب (بأكثر مما يتبناها الشرق) تستمد جذورها من الدين ومن الإسلام بالتحديد في المقام الأول، وتحاول أن تستعيد الانطلاق من قواعد إسلامية في التعامل ورد الفعل بعيداً عن تكرار القول بالإسلاموفوبيا وهو القول الذي لا يزال صداه يتردد مع أنه استهلك أدواته تماماً.

بدايات فلسفة القوة

ربما أخطو خطوتين للوراء لأقص للقارئ ما أعتقد أنه كان السبب وراء بدايات فلسفة القوة التي تتحكم في الولايات المتحدة الأمريكية و تمكنها من حكم العالم منذ الحرب العالمية الثانية ، ثم تجد نفسها مضطرة إلى أن تصرح بهذا على لسان كسنجر بعد صدمة الانتصار الإسلامي المفاجئ في ١٩٧٣ الذي بذلت جهداً طيلة خمسة عقود لتتلافى ما تركه من أثر في ثقافتها بمنظومتها ، ثم تستعيد الإحساس بالخطر بعد ثورات الربيع العربي .

نيتشه و المجتمع و رجال الدين

وأبدأ بالحديث عن أن نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠) كان بفلسفته (التي صارت نموذجاً برجماتياً استهدته أمريكا منذ ذلك الحين وحتى الآن) يحاول أن يُنفذ المجتمع الألماني من أزمته الرومانتيكية من خلال طريق رآه فعالاً وهو تخليص ذلك المجتمع من رجال الدين وسلطانهم ، وبنى نيتشه نظريته وفلسفته على أن الدين هو الذي علم الناس العبودية للبشر .

الإرادة

و من العجيب الذي لم يلتفت إليه أحد أنه كان يقرب هذا الطرح بدعوة مباشرة إلى فعل إيجابي شبيه بما نعرفه في الإسلام على أنه الجهاد، وقد تجلى الفكر على المستوى الفردي الذي يفهمه الناس على أنه دعوة من الفيلسوف أو من الفلسفة للشباب (أو للبشر عموماً) إلى تحقيق أهدافهم من الحياة (بما في ذلك من أهداف اللذة نفسها واللهو والمتعة فضلاً بالطبع عن الأهداف الروحية السامية والأهداف العملية) من خلال إرادتهم وعملهم، وهنا تأتي الجملة التي ترتبط بهذا المعنى ويُصنّ عليها صراحة أو لا يُصنّ، وهي الجملة التي تتحدث عن إرادة الإله، فأنت تستطيع أن تكمل جملة شوبنهاور بالجملة المشهورة (في الأدبيات الفلسفية) في وصف فلسفته والقائلة "دون خوف أو ترقب لإرادة السموات" .

من طائفة إلى أخرى

وبهذه الجملة وحدها تخرج بعقيدتك من طائفة إلى أخرى، وأنت تستطيع كذلك أن تصرف النظر عن هذه الجملة احتراماً (على سبيل المثال) لمشاعر المؤمنين في بلاد لن تمنحك موافقتها ولا إقرارها على أن تروج لمثل هذه الفلسفة كاملة على هذا النحو .
أبتعد بك الآن عن المذاهب الفلسفية بعض الشيء و أدعوك أن تتصور ببساطة شديدة موقف من يمكن لك أن تُسميهم علماء الإسلام السياسي المعاصرين من مثل هذه القضية، فتجد جماعات أو فرقاً من السلفية الذين يرون أن الصواب هو نقيض هذا كله ، وانه لا إرادة للبشر ، وهو منطق ينتهي بالطبع إلى إسقاط الجهاد كوسيلة وكفريضة أيضاً ، وهذا هو سر الترحيب الغربي بتطوير السلفية السعودية على سبيل المثال في هذا الاتجاه المنافي للجهاد بدعوى طاعة الحاكم .

تغيير الموقف من الجهاد

و هنا يبدو التكتيك السياسي الأمريكي الناجح والضامن للنجاح أبسط من البساطة ، فيكفي أن تعتمد على حاكم إسلامي (تصنعه أنت كقوة غريبة) يؤمن بحرمة الجهاد وعبثيته بدلاً من مشروعيته و فرضيته، ويجبر هذا الحاكم من يحكمهم على هذا بمنطق القوة والردع (الذي يُمكن لك كقوة غريبة أن تقويهما وتميئهما) وبمنطق المرجعية الدينية التي لا توافق على عصيان أوامر ولي الأمر مهما كان الخطب..

السلفية المُستحدثة وجودية

و هكذا تقود السلفية المُستحدثة مجتمعاتها بالمسار العكسي أو بالطريق الموازي إلى صورة من صور الفلسفة الوجودية المبالغ فيها ، فيصبح الانسان في نظر هذه الفلسفة مسئولاً عن اللحظة التي هو فيها فحسب ، غير معني بالمجد ولا بالشهادة، وغير معني بأسلافه ممن يستحقون تمجيد جهادهم.

ويدعم هذا ما بدأت بعض الفرق السلفية في ترديده (بخبث أو غفلة ، والغالب أنه عن غفلة) عن تاريخ الحروب الإسلامية من الحديث عن ان الجهاد نفسه لا يصدق إلا بصدق النية. ولأنك بوسائلك البشرية لا تستطيع أن تجزم بمعرفة النية الصالحة.. فمن الطبيعي أن تتحول النظرة السلفية الراهنة إلى انتاج مسخ جديد من المسوخ الناشئة عن أفكار مناقضة فحسب لفلسفة شوبنهاور الذي حاول بفلسفته أن يعوض الألمان عن هزيمتهم وان يبعثهم من جديد فإذا بهذه الأفكار المناقضة (في حالة الالتزام بمنظومة طاعة ولي الأمر) تتحول إلى انتحار بطيء نشهد الآن بعض مظاهره.

الباب الثامن

تجارب فاصلة

الفصل الثاني والعشرون

بطولة بابا الروم الأرثوذكس في حرب فلسطين

كان البابا كريستوفورس الثاني بطريرك الروم الأرثوذكس في الإسكندرية أول زعامة دينية على الإطلاق انتبهت إلى ما يمليه الضمير الوطني على العرب جميعاً في حرب فلسطين ، و قد جاهر هذا البابا الشجاع برفض حل الدولتين ، كما جاهر برفض توجه الأمم المتحدة المنحاز للرؤية الأمريكية ، و جاهر برفض إشراف الفاتيكان على الأماكن المقدسة ودعا إلى التمسك ببقاء القدس في يد المسلمين وقدم أسانيده الواضحة في كل هذه التوجهات .

من حسن حظ التاريخ الإسلامي و العربي أن الأستاذ الشيخ محمود شاكر بما عرف عنه من الفضل والوعي والاستبصار والوطنية والشجاعة و الجسارة والوضوح سجل هذا الموقف للبابا العظيم في مقال له في مجلة الرسالة ذائعة الصيت ، وهو مقال متاح في أكثر من موضع من مواقع تراثنا الفكري والتاريخي

من ثناء الأستاذ شاكر على البابا كريستوفورس

ربما نكتفي من ثناء الأستاذ شاكر على البابا كريستوفورس الثاني بطريرك الروم الأرثوذكس في الإسكندرية بهذه الفقرة الحافلة بدفع الحب و صادق التقدير ، فقد كان موقف ذلك البابا العظيم أكبر من كل ثناء :

" يتلأ قلبه بنور الإخلاص والإيمان، تكلم فأبان عن نفس حرة أفرعت (اليهود المسئولين في مدينة الإسكندرية) أي يهود مصر، فأقبلت طائفة منهم تريد أن تثني هذا الرجل الجليل عن إذاعة حديثه، فأجابهم بأنه ما قال ما قال إلا وهو يعتقد أنه قول صريح سليم، وليس إقحاماً للدين في السياسة، وأنه يقصد حماية التراث المقدس للمسيحية، وإنه إنما يتكلم عن عقيدة وإيمان بما يقول. ذلكم هو الرجل النبيل غبطة البابا كريستوفورس الثاني بطريرك الإسكندرية وإفريقية الأرثوذكس.

نكاه البابا في رفض فكرة الدولتين

يلخص الأستاذ محمود شاكر الآراء الذكية الحاسمة للبابا كريستوفورس فيقول ضمن ما يقول

:

"... جاء في هذا الحديث أن غبطة البطريرك الأعظم للروم قد دهش لإنشاء دولتين في فلسطين، ودهش أيضاً من أن تكون أمريكا والاتحاد السوفيتي هما الداعيتين إلى هذا التقسيم. ثم قال: "وإنه لتزداد دهشتنا أن تعمد الولايات المتحدة الأمريكية إلى هذه المحاولة الجريئة رغم أحداث التاريخ الدالة على فساد هذه الفكرة وخطرها. ولهم العبرة فيما حاوله الإمبراطور جوليان الروماني. ولا ندري كيف فكرتا في وضع الأراضي المسيحية المقدسة في حماية أولئك الذين رغبوا دائماً، جماعات وأفراداً، في أن يعيشوا حتى يروا اليوم الذي لا يسمع فيه ذكر للمسيح. وهل يستطيع إنسان أن يتصور اليهود حرساً وحماة للأمكنة المقدسة. وهم الذين سيعمدون إلى تدنيسها بمجرد السيادة فيها؟"

رفض البابا لفكرة السماح للفاثيكان بسيادة في فلسطين

"ونحن نرى أيضاً أنه لا يمكن أن يسمح للفاثيكان أن تكون له السيادة في فلسطين، فإن الحروب الصليبية قد برهنت على فساد هذه الفكرة. ولهذا فإننا نحن الروم الأرثوذكس نرى أنه في حالة إلغاء الانتداب الدولي على الأراضي المقدسة، أو عدم وجود دولة عربية مكان هذا الانتداب، أن تعطي للمسلمين حماية هذه الأراضي، لأنهم منذ مارسوا حكمها في هذه القرون الطويلة، قد برهنوا على أنهم جديرون بثقتنا".

إشادة الشيخ محمود شاكر بفهم بابا الروم للقضية

يورد الأستاذ الشيخ محمود شاكر بعد هذا رأيه الواضح في الاعتزاز بشهادة بابا الروم الأرثوذكس وتقدير ما وراء هذه الشهادة من فهم عميق للتاريخ الحديث والقديم وهو يصف حديث البابا كريستوفورس بأنه :

".... كلام رجل مؤرخ عالم بصير لا يدفعه إلى ما يقول هوى لشيء ولا رهبة لمكروه، فإن غبطة البابا كريستوفورس قد قضى طفولته وشبابه في فلسطين، وقد عرف بنفسه شعور اليهود ضد العرب وضد الأرض المقدسة، كما قال متكلم بلسان البطريركية الرومية.

"وقد أثبت حديث البطريرك الأعظم بتمامه لأنه سوف يصبح هو وقائله جزءاً لا يتجزأ من تاريخ الإسلام، ولأننا نحن المسلمين نحن أن نحمل المنن في أعناقنا فنحافظ عليها ونرعاها وندافع عنها ونجزئها أحسن الجزاء.

"إن حديث هذا الشيخ الأجل سوف يصير قطعة من تاريخنا يرويه أربع مائة مليون عربي ومسلم في مشارق الأرض ومغاربها، وهو حدث يفسر كل ما كنا نقول به من أن مشايعة الدول

الأوربية والأمريكية للصهيونية الفاجرة، قائمة على الصليبية الحمقاء. فهم يحاربوننا حرباً صليبية لا يستثنون فيها مسلماً ولا نصرانياً في الأرض الإسلامية والعربية وقد كان بعض الناس يعيب علينا هذا الرأي، ولكن حديث البطريك الأعظم قد كشف الغطاء عن كل ذلك، ومهد للتاريخ أرضاً جديدة يدرس فيها هذا الصراع بين أهل الشرق العربي الإسلامي من مسلمين ونصارى، وبين الغرب الصليبي من نصارى ويهود.

" ولكن نصارى الشرق غير نصارى الغرب، فهؤلاء قوم ملئت قلوبهم أحقاداً صليبية مظلمة لا عقل فيها ولا ضمير لها، أما نصارى الشرق فهم يعرفون تمام المعرفة أن نصارى الغرب قوم مفتررون جاهلون متعصبون يريدون أن يندسوا هذه الأرض المقدسة باليهود عداوة للمسلمين ، غير ناظرين إلا بالعين الصليبية البغيضة، لا بعين الإنصاف والحق كما ينظر نصارى المشرق. وحسبنا هذا البيان من البطريك الأعظم، فإنه حسنة لن ينساها له مسلم إلى أن تقوم الساعة." .

موقف يهود الإسكندرية من حديث بابا الروم الأرثوذكس

و بعد كل هذا الوضوح يعقب الأستاذ الشيخ محمود شاكر ملخصاً موقف اليهود المصريين المنحاز ضد العرب الذي جعلهم يسارعون إلى البابا في محاولة منهم لإيقاف نشر هذا الحديث الصريح ، وينتقد الأستاذ شاكر موقف اليهود المصريين بكل وضوح فيقول :

" أحب أن أنبه القارئ، وأنبه قومي العرب في كل مكان، وفي مصر خاصة، إلى أنه ما كاد (يهود مصر) يعلمون نبأ إذاعة هذا الحديث في الصحف حتى تبادروا إلى غبطته يريدون أن يثنوه عن نشره وإذاعته. فما معنى هذا الذي يفعله اليهود الذين خلعنا نحن عليهم الجنسية المصرية؟

غفلة الحكومة المصرية

يقول الأستاذ الشيخ محمود شاكر :

" وماذا نقول حكومتنا في هؤلاء القوم الذين يريدون أن يكونوا أعواناً للصهيونية في قلب بلادنا في هذه الساعة؟

" أو يحدث هذا في مصر في الأسبوع الماضي، وإذا بنا يقرأ اليوم (٨ ديسمبر سنة ١٩٤٧) أن الشرطة العراقية ألقت القبض عند الحدود العراقية السورية على ثلاثة يهود عراقيين من موظفي شركة الزيت العراقية ومعهم جهاز إرسال لاسلكي. فما معنى هذا؟

"ليعلم اليهود أن العرب لن يقبلوا أن يكون للطابور الخامس عمل في بلادهم"

الفصل الثالث والعشرون

البابا يوساب و موقفه الوطني

كان البابا يوساب بعد الملك فاروق هو ثاني القيادات المصرية التي عوقبت عقابا خفيا بسبب موقفها الوطني من حرب فلسطين. ومع أن الأوراق الرسمية لا تذكر هذا بصراحة فإن السياق واضح إلى حد بعيد.

وفيما قبل حرب فلسطين كان للأستاذ الشيخ محمود شاکر شأنه في هذا ، شأن المفكرين الوطنيين الأصلاء في كل أمة وكل أزمة ، دور كبير في بيان الحق من الضلال و الصواب من الباطل والعدو من الصديق ، وعلى نحو ما كان حاسما في خطابه المهذب والصارم للحاخام حاييم ناحوم الحاخام الأكبر لليهود (وقد أوردناه في موضع تال) فإنه كان سباقا إلى إبداء الشكر والتقدير والامتنان للبابا كريستوفورس بابا الروم الأرثوذكس .

وهذه فقرات من ثناء الأستاذ الشيخ محمود شاکر على البابا يوساب ١٨٧٥-١٩٥٦ بابا الأقباط الأرثوذكس في السنوات العشر الأخيرة من حياته ١٩٤٦-١٩٥٦ ، ومن الجدير بالذكر أن هذا البابا كان رجلا متعلما عالما حكيما لكن مواقفه الوطنية ضد الصهيونية جلبت عليه المؤامرات حتى صورته ضعيفا متخاذلا ولم يكن في يد هذا الرجل أية قدرة على نفي أي شيء يقال عنه ، في ظل تنامي حكم دولة شمولية لم تكن ترغب في وجود أية قيادة دينية حقيقية ، و في ظل روح انتقام صهيونية تبنتها ومولتها أمريكا بكل الوسائل ضد كل من قاوم المشروع الصهيوني من القيادات العربية أيا كان موقعها .

حب نصارى مصر و الشام والعراق

قال الأستاذ الشيخ محمود شاکر ضمن حديثه :

" كنت أرى أن نصارى الشام والعراق قد بذلوا من الجهود في قضايا العرب ما صرح عن مكنون أنفسهم وعن إخلاصهم الذي لا يدفع، وأنهم جزء لا يتجزأ من العالم العربي ومن العالم الإسلامي، وكنت أتخوف أن يقف قبط مصر مترددين عن المشاركة الصريحة في جهاد العرب والمسلمين في مسألة فلسطين، ولكني أشهد الله اليوم أن قبط مصر قد ملئوا قلوب العرب والمسلمين غبطة بهم وإكباراً لهم، وحرصاً على مودتهم حرصاً لن يعمل فيه بعد اليوم دس ولا كيد ولا وقية. إنه لا يحل لأمرى مسلم أو عربي بعد اليوم أن يرتاب أو يتشكك في نبل هؤلاء الإخوان الذين نصرنا في ساعة العسرة لا تدفعهم إلى هذه النصررة رغبة ولا رهبة".

"وسأسجل ... مآثر لرجلين (يقصد البابا كريستوفورس والبابا يوساب) من أجل النصارى شأناً، لأنهما وقفا في الجهاد موقفاً يوجب علينا أن نخلد ذكرهما في تاريخ العرب وتاريخ المسلمين،

ولا سبيل إلى جزاء هذين الرجلين إلا بأن نرفع ذكرهما في هذه الساعة والى أبد الدهر، لأنهما قطعاً السبيل على كل خبيث من شياطين السياسة القذرة التي انبعثت في أوربة وأمريكا، وعلى شياطين اللوم الصهيوني الدنيء."

سمات العظمة في شخص الأنبا يوساب

يروى الأستاذ الشيخ محمود شاكر أسباب ثنائه على البابا يوساب هذا "الشيخ الجليل الصادق"

حسب وصفه فيقول :

" اجتمع المسلمون والعرب في المسجد الجامع الأزهر في يوم الجمعة ٢٢ المحرم سنة ١٣٦٧، فإذا الناس يفاجئون بمقدم القمص ميثاس الأنطوني سكرتير غبطته مندوباً من قبله، ومعه إخوانه من رؤساء الأقباط في مصر، القمص جرجس إبراهيم رئيس الكنيسة القبطية الكبرى، والقمص عبد المسيح سعد، والقمص مرقص غالي. ودخول هؤلاء الأربعة الكرام إلى المسجد الجامع في ساعة الجمعة، ونيابتهم عن غبطة البطريك الأعظم في شهود هذا اليوم المشهود، وخطبتهم الناس في هذا المسجد، ومشاركتهم في أكبر مؤتمر إسلامي في مصر، قد دلّ دلالة صريحة على أن الأنبا يوساب البطريك الأعظم، هو رجل قد نور الله قلبه بالحق، وآتاه من الفطنة والصدق والأمانة في دينه وخلفه ما يجعل عمل هذا أمانة في عنق كل مسلم عربي، يحميها ويدفع عنها ويعتز بها ويكرم أصحابها في عامة أمورنا وخاصتها. وقد فعل ذلك من تلقاء نفسه غير متردد، فدل ذلك على أنه رجل سياسي مخلص، وعلى أنه يدرك تمام الإدراك كل ما يحيط بهذا الفجور الصهيوني من الخبايا، وعلى أنه يأبى أن يدخل بين أقباط مصر ومسلميها مفسد يبغي الوقيعة".

الشيخ شاكر يقدم نماذج لمواقف الأنبا يوساب الذكية

" وقف هذا البطريك الأعظم موقفاً رد كيد البريطانيين في نحورهم، وذلك في حادثة الزقازيق التي دبرتها بريطانيا لإفساد ما بين المسلمين والأقباط، فلولا حكمة هذا الرجل النبيل، لكان هذا الحادث البغيض سبباً في اشتعال نار الفتنة التي أشعلت بريطانيا مثلها من قبل لتفرق كلمة الأمة تفريقاً يجعل بعضنا لبعض عدواً."

" ونحن نحمد الله إذ جعل في إخواننا القبط رجالاً كهذا الرجل الجليل، يقف حارساً يقظاً على أمته وأمنها، يرد عنها كل مكيدة. وما دام في الأقباط هذا الرجل وأمثاله، فالمسلمون والعرب جميعاً لا يبالون بعد اليوم أن يبذلوا مهجهم في الذود عن إخوانهم، وفي حمايتهم، وفي الدفع عن كل شيء يسوئهم، ما بقى على ظهر هذه الأرض مسلم يؤمن بالله وملائكته ورسوله واليوم الآخر. إنه دين في أعناقنا للقبط، نسأل الله أن يهبنا القدرة على أدائه وإن أبوا هم أن يقبلوا عن هذه المأثرة جزاء.

الفصل الرابع والعشرون

حين طلب من يهود مصر أن يقفوا ضد الصهيونية

شجاعة العقل

كان المفكر المصري العظيم الأستاذ محمود شاكر ١٩٠٩-١٩٩٧ المعروف من باب الإجلال بأنه الشيخ شاكر رجلا صادق العهد والوعد والقلب و الإحساس والوطنية والقلم فضلا عما عرف عن شجاعته وعلمه ومروءته .

وقد كتب هذا الأستاذ الجليل في نهاية ١٩٤٧ (أي قبيل حرب فلسطين) في مجلة الرسالة ذائعة الصيت رفيعة المستوى مقالا عاقلا متعمقا حافلا بالوضوح والصراحة واللياقة و الوطنية و قد طلب فيه من ثلاثة زعماء دينيين إيضاح ما يقتضيه الوطن العربي منهم من الموقف السياسي في ظل نذر حرب العصابات الصهيونية التي كانت تنوي تحقيق ما اختطفته أو انتزعت بالفعال في حرب ١٩٤٨ .

ننقل عن هذا المقال ، ومن دون اختصارات كثيرة، بعض فقرات ذلك الجزء الذي توجه فيه الأستاذ محمود شاكر بالخطاب إلى الحاخام حاييم ناحوم الذي كان هو الحاخام الأكبر للطائفة الإسرائيلية في مصر ، و الذي كان كما نعرف عضوا معيناً في مجمع اللغة العربية ، وصاحب حضور رسمي متصل في المجتمعات المصرية .

وقد بدأ الأستاذ الشيخ شاكر هذا الجزء من مقاله بأن لخص بأمانة شديدة تصريحات الحاخام قبل أن يعلق عليها ويصفها بأنها غير كافية .

يقول الأستاذ الشيخ شاكر :

" أفضى سيادة حاييم ناحوم أفندي الحاخام الأكبر للطائفة الإسرائيلية في مصر بالتصريح الآتي: "إني أرى أن مركزي بوصف كوني رئيساً دينياً وروحياً لأبناء الطائفة الإسرائيلية، يحول بيني وبين الخوض على صفحات الصحف في أي مناقشات مهما كان نوعها أو الغرض منها. ولكن إزاء كثرة ما وجه إلينا من أسئلة واستفهامات أرى أن واجبي يحتم علي أن أتوجه إلى السائلين وإلى جموع الأمة المصرية الكريمة بكلمة أرجو أن تكون حداً فاصلاً لهذا الموضوع"

" فأبناء الطائفة الإسرائيلية التي أتشرف برياستهم الدينية هم جزء لا يتجزأ عن الأمة المصرية، يشعرون بشعورها ويتألمون لألمها " .

" فكيف إذن يحاول البعض التشكيك في عواطفهم نحو أبناء بلدتهم المصريين. إن دستور البلاد يكفل لنا جميع الحقوق الممنوحة لبناء مصر الكريمة سواء بسواء"

" ولذلك فإن واجبنا نحو بلادنا يجعلنا نعمل بشعورنا كمصريين. وقد أصدرت أمري إلى رجال الكنائس الإسرائيلية بإقامة الطقوس الدينية ليعطوا فيها أبناء الطائفة على أن يتضافروا مع إخوانهم المصريين في هذا الظرف العصيب"

توجيه الحاخام إلى ما ينبغي أن يقول

وسرعان ما علق الأستاذ الشيخ محمود شاكر بتوجيه الشكر للحاخام ثم توجيه الحاخام نفسه إلى ما كان ينبغي أن يقول :

" ونحن نشكر الحاخام الأكبر، ولكن ليعلم سيادته أنه قبل أن يتوجه إلينا بكلام يكون (حداً فاصلاً) ينبغي أن يعمل هو وأبناء طائفته عملاً يكون (حداً فاصلاً) وهذا مع الأسف لم يحدث قط ، وأخشى أن أقول إنه لن يحدث قط"

ثم بلور الأستاذ شاكر عدة أسئلة مهذبة لكنها استنكارية ، وقد صاغها في غاية الذكاء وتوجه بها إلى الحاخام الأكبر .

وسنرتب هذه الأسئلة الذكية الكاشفة بعد أن نعددها ونفصل بينها ، ليرى القارئ المعاصر المدى الذي وصل إليه الوضع (في الفكر والرؤية والتعبير) الذي كان يتمتع به مفكر بارز من مفكرينا الأحرار فيما يتعلق بقضية فلسطين .

السؤال الأول عن عدم استنكار الحاخام لليهود الإسكندرية

" ... ليأذن لنا سيادته أو توجه نظرة الكريمة إلى الذي ذكرناه وذكرته الصحف ولم يستنكره أحد من يهود مصر، وهو ذهاب بعض المسئولين من اليهود في ثغر الإسكندرية كي يثثوا البطريق الأعظم للروم الأرثوذكس عن إذاعة حديثه. أهذا أيضاً إقحام للدين في السياسة.

" وليأذن لنا سيادته أن نقول له إننا نعيش في أرض مصر، واليهود يعيشون معنا فيها لا في التاريخ، وأنا نعلم علماً يقيناً أن جمهوراً كبيراً من شباب اليهود في مصر، يجري بينهم الحديث وبين المصريين، فلا نجد أحداً منهم يكتفم مشايخته لإنشاء دولة يهودية في فلسطين، بل يفرح بها ويصر على التصريح بأنها خير لبلادنا، وأنه ينبغي علينا نحن العرب أن نعاون على إنشاء هذه الدولة، وأن نعيش معاً في سعادة وأمن ورخاء!"

السؤال الثاني عن عدم استنكار الحاخام لقرار التقسيم

" وليأذن لنا سيادته أيضاً أن ننبهه إلى أن هذه الساعة التي جاش فيها العالم الإسلامي والعربي، ليدفع عن فلسطين الجور الذي أرادت هيئة (الأمم المتحدة) التي تصرفها روسيا وأمريكا وبريطانيا، هي ساعة فاصلة في تاريخ العرب والمسلمين ونصارى الشرق جميعاً، وليأذن لنا أن ننبهه أيضاً أن النار المشتعلة الآن تفصح كل الإفصاح عن المعنى الذي ينطوي عليه تقسيم فلسطين، فكيف ذهب عن فطنة سيادته أن يذكر كلمة واحدة صريحة تفصح أيضاً كل الإفصاح عن استنكاره واستنكار طائفته لهذا التقسيم الجائر الذي أرادت أن تفرضه على العرب هيئة الأمم المتحدة؟

السؤال الثالث عن عدم تقديم اليهود ضمانات بأنهم ليسوا صهاينة

يقول الأستاذ شاكر بكل وضوح :

" وليأذن لنا سيادته أيضاً أن ننبهه إلى أن الصهيونية تدعى أنها تتكلم باسم يهود العالم جميعاً، وأن جميع الدلائل إلى اليوم تدل على أن كثرة يهود العالم منضمة إليهم، فما هو الضمان الذي يقدمه لنا سيادته حتى تطمئن قلوبنا إلى أن يهود مصر ليسوا كيهود سائر العالم؟"

السؤال الرابع عن موقفه من خطة الصهيونية

" وليأذن لنا سيادته أيضاً أن ننبهه إلى أن الصهيونية قد أذاعت منذ القديم أنها تريد أن تستولي على أرض إسرائيل كلها من الفرات إلى النيل، وأن هذا مطبوع منشور في كتبهم، وأنه حين أذاع نبأ التقسيم وقف مفلوك صهيوني يستنكر التقسيم ثم يرضي به على مضض، لأنه الخطوة الأولى التي تقضي إلى استيلائهم على أرض بني إسرائيل كلها من الفرات إلى النيل. وأنا لا أظن أن مثل هذا مما يغيب عن الرجل الفاضل العالم أحد أعضاء المجمع اللغوي العربي.

السؤال الخامس عن موقفه من الحرب القادمة

" وليأذن لنا سيادته أن نذكره بوصية في محكم تنزيله إذ يقول: (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين)، فالمسلمون والعرب جميعاً سوف يقاتلون من يقاتلهم من الصهاينة، أما سائر اليهود فلن يعتدي عليهم مسلم ولا عربي ما داموا في ذمتنا ولا يؤلبون علينا. فهل يأذن سيادته بأن يعلم أن المسألة ليست مسألة سياسية نريد أن نقم الدين فيها، بل هي مصير العرب والمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها؟

" وهل يأذن لنا أن نسأله أن يدفع عن يهود مصر كل شك وريبة بأن يصدر بياناً صريحاً عن موقف يهود مصر في مسألة التقسيم؟

" وهل يأذن لنا سيادته أن نطالبه ونطالب أبناء ملته من يهود مصر بأن يفعلوا فعلاً صريحاً واضحاً يدل على أن عواطفهم هي عواطف الأمة المصرية تشعر بشعورها وتتألم بألمها؟

" وهل يأذن لنا سيادته أن نقول له إن هذا الذي يجري الآن ليس (ظرفاً عصيباً) كما جاء في كلامه، بل هو أوضح من ذلك، هو حرب بيننا وبين يهود العالم وكل من يناصرهم من الأمم، وأنها حرب سوف تستمر إلى أن يستقر الحق في قراره ولو طالت مائة عام؟

السؤال السادس عن الدفاع عن بيت المقدس

وبعد هذا كله يتساءل الأستاذ محمود شاكر :

" أفليس من الحكمة إذن أن يتخلى الحاخام الأعظم عن العزلة التي يريدها لنفسه، ويدخل هو وأبناء طائفته في الجهاد الذي كتب علينا نحن العرب من مسلمين ونصارى ويهود لكي ندفع عن بيت المقدس أدناس الصهيونية؟

الأحداث أسرع من البرق

يرمي الأستاذ محمود شاكر قفاز الحقيقة الساطعة كما يقولون في وجه الحاخام الأكبر ويقول بوضوح :

" هذه كلمة مجاهد عربي يتقدم بها إلى الحاخام الأعظم تعليقاً على حديثه الذي سوف يبقى مذكوراً في تاريخ الإسلام والعرب لم أعمد فيها إلى شرح أشياء أعرفها حق المعرفة، انتظراً لما يكون من عمل سيادة الحاخام الأكبر "

" و ليعلم سيادته أن الأحداث أسرع من لمحات البرق في السحاب المترالكب، فليبادر إلى الخير مبادرة من عرف وجه الحق فلم يحجم به إلى الجهاد خوف ولا فزع ولا إرهاب. أن عمل الحاخام الأكبر هو (الحد الفاصل) الذي ينتظره اليوم أربعمائة مليون مسلم قد استيقظوا وأدركوا أن يهود العالم قد أعلنوا عليهم الحرب، فلم يخذعهم بعد اليوم شيء عن الطريق الذي سار آباؤهم من قبل، فنصرهم الله وأيدهم وهزم أعداءهم وأعلى كلمتهم وجعلهم خير أمة أخرجت للناس.

الفصل الخامس والعشرون

اللحظة التي يتخلى الغرب فيها عن عملانه

لحظة غير منطقية لكنها فاصلة

أبدأ بالقول إنها لحظة غير منطقية ، أي أنها لا تخضع للمنطق المترتب على حجم الجرائم أو نوعيتها أو مدى تحديدها للقانون وللإنسانية، لكنها تخضع بالتأكيد لما نسميه في علوم الأدب والفن بالبناء الدرامي، والبناء الدرامي ليس علما ولا منتجا صناعيا أو علميا، لكنه منتج بشري تغديه العاطفة والذائقة والذاكرة والخبرة كما تغديه لحظة إبداع لا يعرف أحد مأتاها ولا مؤاتاتها ولا مواتها [المأتى هو المنبع، والمؤاتاة هي المصادفة والتوافق، والموات هو الموت المعنوي]. من الطريف أنك إذا وجدت اهتماما بشريا بحدث ما ، فإنك تجد في الوقت ذاته من يطرح السؤال التقليدي القائل : لماذا اهتمتم بهذه الحادثة ولم تهتموا بما هو أكثر فظاعة منها؟ لماذا تهتمون بفرد واحد ولم تهتموا بالآلاف تعرضوا ولا يزالون يتعرضون لأقصى مما تعرض له هذا الفرد الواحد؟

ومع أن الجواب على هذا قد يبدو معروفا أو مفهوما أو متصورا ، فإن السؤال يظل يطرح نفسه في كل مناسبة.. لكن الجواب الأطراف في هذه الحالة أن تقول إن هناك آلافا من محسن بيه و سي السيد ومن عطيل وماكبث وهاملت وفاوست وأحدب نوتردام وتيريزا راكان ودون كيشوت ، لكن هذه الشخصيات استوفت البناء الدرامي الذي كان كفيلا بتحريك المشاعر من غاية إلى أخرى.. وهذا هو جوهر قصة خاشقجي وقصة خالد سعيد وقصة البوعزيزي . وهذا هو ما يجعل حياتنا الإنسانية مختلفة عن المصنوعات أو منتجات المصانع وعن المزروعات أو طرح الأرض الخضراء.

السيناريوهات البيولوجية البديلة

خلق الله سبحانه وتعالى الكون وأودعه أسرار الطفرة كما أودعه سنن الوراثة والتطور والارتقاء وكذلك صنع الله سبحانه وتعالى في تاريخنا البشري الذي شهد علامات على الشطط الذي يقود العقل البشري في لحظات معينة إلى مواقف فاصلة في تاريخ الحضارة الإنسانية . ومن بديع صنع الله أن الغالبية الساحقة من البشر يؤمنون بالمسار الإنساني على نحو ما رأوه من دون أن يشغلوا بالهم في لحظة واحدة بتصور السيناريوهات البديلة ، مع أن تصور هذه السيناريوهات يخلق للعقل البشري آفاقا من الفهم والاستيعاب تفوق كل ما يمكن لعلوم الاجتماع

أن تقدمه لفهم التاريخ ، بيد أن حركة التاريخ الدائبة وسرعة الحياة المتدفقة تحولان بين أهل الفكر وبين الاقتناع بفكرة السيناريوهات البيولوجية البديلة..
ومع هذا فإننا منذ أكثر من عشرين عاما ، بل منذ ربع قرن لا نتوانى عن أن نستخدم هذه النظرية في فهم ما حدث .. وما كان يمكن أن يحدث.

السلام الدافئ

ننتقل إلى الحالة التي نعيشها في هذه الأيام التي وجد العقل البشري نفسه فيها أسيرا للحيرة من موقف قيادات الغرب من هذا الطغيان العربي الذي قدم نفسه لمجتمع لغرب (من خلال دولة الإمارات) على أنه أي الطغيان يخدم مصالح الغرب بالقضاء على الإسلام السياسي، ثم قدم نفسه للغرب (من خلال السعودية) على أنه سيتكفل بتمويل القضاء على الإسلام السياسي مع دفع الحصة الأكبر من رقم الإنتاج للغرب نفسه في صورة مشتريات أسلحة وبرامج استراتيجية وخطط دفاعية تتوسع حتى تشمل هؤلاء المهاجرين المسلمين لقتلهم في مياه المتوسط قبل وصولهم إلى الحدود الأوروبية الساحلية..

ومع هذين التقييمين قدم الطغيان العربي نفسه خادما لإسرائيل مؤمنا لحدودها قاتلا لمقاوميهها متنازلا لها عن كل ما يملك متغزلا في السلام الدافئ معها و مندفعاً إلى التصويت لها في المحافل الدولية وغير الدولية..

ماذا كان في وسع الغرب أن يتصوره من مزايا و عوائد في أي نظام سياسي في أي منطقة في العالم أكثر من هذه الخطة السحرية المكتملة التي قدمها هذا التحالف الطغياني القائم في الدول التي أصبحت تُعرف بأنها دول حصار قطر؟

بل ماذا كان في خيال أي أديب غربي أن يتخيله من تبعية مدفوعة الأجر ، وكأن هذا التابع الطاغية رُزق ثروة واسعة من ميراث طبيعي فأنفقها في شراء "سيد" يأمره بقتل إخوانه بدلا من أن يشتري عبيدا يخدمونه من أجل أن ترتقي بيئته فيغذي مساكن مواطنيه بالصرف الصحي مثلا بدلا من أن يستنزف الموازونات في القتل المحرم والآثم؟

الحقد على الذات

- هل يستطيع مؤلف قصصي أو مسرحي أن يزعم أن بوسعه أن يؤلف مسرحية بعنوان "شراء سيد" دون أن يجد نفسه مضطرا إلى أن يصور هذا الثري الذي ينفق على شراء من يتسيده معتوها أو مصابا بمس من الجن؟
- هل يستطيع أن يصوره لاهيا ومحبا للخمر ، فهو لهذا يريد من يجبره على معاقرة الخمر؟ مع أن في وسعه أن يسكر وأن يعاقر ما شاء من المسكرات؟
- هل يستطيع أن يصوره مصابا بالدونية فحسب؟

- وهل تكفي الدونية لتفعل في صاحبها ما فعله الطغيان العربي في أقطابه؟
- هل تكفي كل الأمراض النفسية الخبيثة الأخرى لتفسير كل هذا الحقد على الذات؟ وعلى التراث؟ وعلى الدين؟ وعلى كل المطالبين بحقهم في عبادة ربهم؟

البناء الدرامي

لا يتصور أحد أن مؤلفا مهما بلغت قدرته على الخيال والتصوير يستطيع أن ينجح في إتمام بناء درامي كمثل هذا الذي بناه شباب عربي متنفذ لم يعرفوا الفن ولا الأدب ، لكنهم عرفوا النفوذ والمال، ولم يعرفوا الخيال ، لكنهم عرفوا الشطط، لم يعرفوا جوهر عبادة الله ، لكنه عرفوا مظهر استعباد البشر، لم يعرفوا سمو الألم ، لكنهم عرفوا لذة الانتقام، لم يعرفوا التفكير في العواقب ، لكنهم عرفوا لذة الابتسامة الخفية التي تتأفقهم بها الأنثى المدربة لتكسب ما لن تكسبه طيلة عمرها من كل من عرفت وكل من ستعرف.

هكذا يودع الله سبحانه وتعالى سر البناء غير الدرامي غير المسبوق في مثل هذا الشباب المتنفذ المتغترس ليقرر دون أن يدري نهاية حقبة سوداء لم يكن أحد يتصور أنها ستنتهي .. بل إن الحقيقة أن أحدا حتى الآن لا يكاد يصدق أن هذه الحقبة ستنتهي..

لكن الذين يعرفون معنى الإيمان وطعم اليقين يعرفون جيدا بكل جوارحهم أن الله غالب على أمره، وكنت ولا أزال أحسب نفسي من هؤلاء حتى إذا لم يبق أحد منهم سواي.

المحتويات

٥	هذا الكتاب
٩	الباب الأول
٩	الصراع مع الإسلام
٩	الفصل الأول
٩	جوهر الصراع الأمريكي الراهن تجاه الإسلام
٩	النمط المطلوب
٩	السؤال عن النية
١٠	أية مئذنة جديدة
١١	الاستثمار المجدي في الإرهاب
١١	السنة والشيعية
١٢	الفصل الثاني
١٢	هل تحولت الحرب على الإسلام إلى مرض وبائي ؟
١٢	الإسلام السني
١٢	استثمار الأسماء الراحبة
١٣	مظلة نفي الآخر
١٣	توجهات سلطوية متجنبة
١٤	انتظار ذروة درامية
١٤	مأزق السياسيين الدهريين
١٥	الأوهام الرهابية
١٦	الفصل الثالث
١٦	لماذا يتأجج الصراع الديني في عصر العولمة
١٦	الحضور ثم التسويغ
١٦	الشيعية و الواجب الفولكلوري
١٧	تناقض الأسماء و الواقع
١٨	الاستيعاب يضاعف الاستعادة
١٨	الاختلافات والتأصيل
١٩	ضيق الكهنوت وسعة الحياة
٢٠	الباب الثاني
٢٠	الخوف من الإسلام
٢٠	الفصل الرابع
٢٠	كيف نستوعب الصليبية الجديدة ؟
٢٠	خوارزمية جديدة

٢٠	إرهاصات
٢١	التحفظ الكظيم
٢١	سحب بساط الثراء
٢٢	القافلة و قطع الطريق
٢٢	التريث تجاه التريص
٢٣	تجربة ديموقراطية إسلامية
٢٣	جاذبية الإسلام السياسي
٢٤	صليبية غير مبررة
٢٥	الفصل الخامس
٢٥	الذين يعادون الديموقراطية خوفا من الإسلام
٢٥	الأكاذيب الثابتة
٢٥	معادة الفكرة الإسلامية
٢٦	رغبات الشعب
٢٦	المتناقضات الناسفة للمصداقية
٢٧	معادة جوهر الديموقراطية
٢٧	تجديد الحرب
٢٨	الطبيعة لا تسمح بإقصاء الإسلام
٢٩	الفصل السادس
٢٩	أمريكا فيما بعد أردوغان
٢٩	حاز الإعجاب ولم يحظ بالقبول
٢٩	حساسية أمريكا تجاه تاريخها
٣٠	ليست قلقة من أنقرة لكنها قلقة جدا من إسطنبول
٣٠	المستقبل الذي تريده أمريكا لتركيا
٣٠	هكذا استقال هيجل
٣١	المجاملة الأوربية غير المبررة
٣١	أوريا خسرت بغياب العثمانيين
٣٢	سبقي لتركيا بعد أردوغان كثير جدا
٣٣	الباب الثالث
٣٣	المقاربة غير التقليدية للإرهاب
٣٣	الفصل السابع
٣٣	نحو آليات ذكية في مواجهة الإرهاب
٣٣	التأمين الانفعالي
٣٣	الخوف من تكرار ١١ سبتمبر

٣٤	الأولوية لشعور أمريكا بالأمان.....
٣٥	مقاربة التنبؤ الاستراتيجي.....
٣٦	العمر الافتراضي للعملاء المحليين.....
٣٦	الوجهة مع العطب.....
٣٧	الفصل الثامن.....
٣٧	ما بين تضخيم الإرهاب وتفتيت الآخر.....
٣٧	رواج الافتعال.....
٣٧	صناعة العالم الموازي.....
٣٨	جاذبية روح التفتيت.....
٣٨	ثقافة المجتمعات المتجزئة.....
٣٩	الأمريكان يرون تصورهم للعالم حتميا.....
٤٠	الكاثوليكي أرحم من الأمريكي.....
٤١	الفصل التاسع.....
٤١	هل حان أو ان رحيل بشار الأسد؟.....
٤١	القصص الإعلامي.....
٤١	غياب الملاذ الآمن.....
٤١	إحساس بشار الطفولي.....
٤٢	التضخم مع التصلب.....
٤٢	قرار رئاسي.....
٤٢	استراتيجية خادمة للزعامة الروسية.....
٤٣	إعلاء قيمة عناد بشار الأسد.....
٤٣	عداء النهضة التركية أصبح عاملا معوقا.....
٤٤	المعادلة المربكة لاستراتيجية أمريكا.....
٤٥	الباب الرابع.....
٤٥	حقبة جديدة من العلاقات مع أمريكا.....
٤٥	الفصل العاشر.....
٤٥	من حق العرب أن يتفاءلوا برئيس غير تقليدي.....
٤٥	التبخر في ليلة نوفمبر الباردة.....
٤٥	البداية لاستفادة العرب.....
٤٦	اختلاف الإحساس بمشكلة المهاجرين.....
٤٦	أفضل من سياسة ذر الرماد.....
٤٧	الدعاوى القابلة للإذابة.....
٤٧	فكرة الاستفاقة السريعة.....

٤٧	بين الاضطراب و الإلحاح
٤٨	الأفق السياسي المتخوف
٤٨	حيازة الفوز المشياً
٤٩	أمريكا أكبر من أن تكون شركة
٥٠	الفصل الحادي عشر
٥٠	في مواجهة سياسة جديدة
٥٠	القذائف اللفظية
٥٠	الفرق بين المنتخب و المرشح
٥١	الثقة في الوسائل
٥١	الوضع الملتبس
٥١	المكسب السهل
٥٢	التقدم العربي في ممارسة الاستراتيجية
٥٢	التقاطعات أكثر فائدة من المسارات
٥٤	الفصل الثاني عشر
٥٤	انحسار مؤشرات تجاهل المسؤولية
٥٤	الهروب الانتقائي من الإنسانية
٥٤	دوافع الهروب
٥٥	الانتقاص من الزعامة
٥٥	طاقة الوضع
٥٦	ميراث جورج بوش الابن
٥٦	صناعة مؤتمرات متعددة الاتجاهات
٥٦	استدعاء الفشل
٥٧	فكرة ذاتية المعايير
٥٨	الباب الخامس
٥٨	نهايات مبكرة لتخوفات متوقعة
٥٨	الفصل الثالث عشر
٥٨	شوق أمريكي لنظرية الاستعمار القديم
٥٨	الغابة و القوانين
٥٨	تناقض الاخلاق و المصالح
٥٩	تفاعل مبدئي التوازن والتجديد
٥٩	الإعلام المتحامل
٥٩	توليد الثورات المضادة
٦٠	توريط الجيوش في السياسة

٦٠	توظيف الإعلام في صناعة البلبلة
٦١	المعارضة التشريحية
٦١	أبوة الشرور
٦٢	الفصل الرابع عشر
٦٢	انحياز أمريكا للديموقراطية أم للكاريزما؟
٦٢	خطر الكاريزما المصطنعة
٦٢	رجال القضاء الأمريكي يصوبون
٦٣	هل الكاريزما لعنة وأكثر منها نعمة
٦٣	تشكيل مفردات السياسة
٦٤	التسلط البيروقراطي
٦٤	السلطة التنفيذية و العسف ببنية المجتمع
٦٤	آليات الكونجرس أصبحت أبطأ
٦٥	الوساوس أقوى من النصوص
٦٦	الفصل الخامس عشر
٦٦	رئيس غير تقليدي في مرايا تقليدية
٦٦	الأمريكي المتعقل
٦٦	الأمريكي الحالم
٦٦	الأمريكي القلق
٦٧	الأمريكي السينمائي
٦٧	الأمريكي المتدين
٦٧	الأمريكي المتعصب
٦٨	الأمريكي الرياضي
٦٨	الأمريكي الحاسم
٦٨	الأمريكي الساخر
٦٨	الأمريكي المتغطرس
٦٩	الأمريكي المتسلط
٦٩	الأمريكي العملي
٧٠	الباب السادس
٧٠	ضمانات في مواجهة الإسلاموفوبيا
٧٠	الفصل السادس عشر
٧٠	رقي القانون الدولي الإسلامي
٧٠	حرية الرأي، وعدم الإكراه
٧١	تطور ملامح العلاقات الدولية

٧١	القواعد الفقهية الحاكمة للحروب
٧٢	فقه التعاهد في الإسلام
٧٣	الفصل السابع عشر
٧٣	أطيان دالة من الجماعات الإسلامية المعاصرة
٧٣	الإخوان المسلمون والجمعية الشرعية
٧٣	الجمعية الشرعية و أنصار السنة الموحّدية
٧٤	الإخوان المسلمون والجماعة الإسلامية
٧٤	الإخوان المسلمون وحزب الوسط
٧٥	جماعات الإسلام السياسي السعودية
٧٥	معاملة المجتمع في السعودية وفي مصر
٧٥	الافتراق بين الاجتماع والاقتصاد
٧٦	الفصل الثامن عشر
٧٦	الإجابة على أسئلة طرحها من أدى دور الأمير
٧٦	الحوار الافتراضي
٧٦	استيعاب التوجهات المعارضة
٧٦	حالة بشار الأسد
٧٧	حالة جلالة الملك فهد
٧٨	حالة جلالة الملك فيصل
٧٨	حالة الملك عبد العزيز آل سعود
٧٨	حالة رئيس كوريا الشمالية
٧٨	حالة الرئيس جمال عبد الناصر
٧٨	حالة الملك خالد
٧٩	حالة الملك عبد الله
٧٩	حالة الأعمام جميعا
٧٩	حالة الرئيس حافظ الأسد
٨٠	الباب السابع
٨٠	مفاهيم مغلوطة في علاج الإسلاموفوبيا
٨٠	الفصل التاسع عشر
٨٠	الفاشية التي يشوهون بها الإسلام السياسي
٨٠	هجوم متكرر
٨٠	موسوليني و الدين
٨١	الشيوعية أصبحت وكأنها دين
٨١	الشيوعيون و الحركات القومية

٨١	معارك الشيوعية والفاشية في إسبانيا
٨٢	الفاشية في مصر
٨٢	مشاعر كراهية الإسلام
٨٣	الفصل العشرون
٨٣	المستقبل الحائر لمشروع السلفية الوجودية
٨٣	موقف يساري مريب
٨٣	الإغراق في فنون قتل الوقت
٨٣	أهمية ما يحدث في السعودية
٨٤	آليتان مرتبطتان : الإعجاب والدفاع
٨٤	التقنيات التي استسهل الغرب اللجوء إليها
٨٤	دور مختلف للأبوية البطريركية
٨٤	الغرب وتوظيف قيم الإسلام
٨٥	تجلي الوجودية في نوعين
٨٥	فكرة الجمع بين العلم والإيمان
٨٦	الفصل الحادي والعشرون
٨٦	وجودية متطرفة تفرضها جماعة كانت سلفية
٨٦	تناقض فكري
٨٦	فلسفة كونية
٨٧	بدايات فلسفة القوة
٨٧	نيتشه و المجتمع و رجال الدين
٨٧	الإرادة
٨٧	من طائفة إلى أخرى
٨٨	تغيير الموقف من الجهاد
٨٨	السلفية المُستحدثة ووجودية
٨٩	الباب الثامن
٨٩	تجارب فاصلة
٨٩	الفصل الثاني والعشرون
٨٩	بطولة بابا الروم الأرثوذكس في حرب فلسطين
٨٩	من ثناء الأستاذ شاكر على البابا كريستوفورس
٩٠	ذكاء البابا في رفض فكرة الدولتين
٩٠	رفض البابا لفكرة السماح للفاتيكان بسيادة في فلسطين
٩٠	إشادة الشيخ محمود شاكر بفهم بابا الروم للقضية
٩١	موقف يهود الإسكندرية من حديث بابا الروم الأرثوذكس

٩١	غفلة الحكومة المصرية.....
٩٢	الفصل الثالث والعشرون.....
٩٢	البابا يوساب و موقفه الوطني.....
٩٢	حب نصارى مصر و الشام والعراق
٩٣	سمات العظمة في شخص الأنا يوساب
٩٣	الشيخ شاكرا يقدم نماذج لمواقف الأنا يوساب الذكية
٩٤	الفصل الرابع والعشرون.....
٩٤	حين طلب من يهود مصر أن يقفوا ضد الصهيونية.....
٩٤	شجاعة العقل
٩٥	توجيه الحاخام إلى ما ينبغي أن يقول
٩٥	السؤال الأول عن عدم استنكار الحاخام لليهود الإسكندرية
٩٥	السؤال الثاني عن عدم استنكار الحاخام لقرار التقسيم
٩٦	السؤال الثالث عن عدم تقديم اليهود ضمانا بأنهم ليسوا صهاينة
٩٦	السؤال الرابع عن موقفه من خطة الصهيونية
٩٦	السؤال الخامس عن موقفه من الحرب القادمة
٩٦	السؤال السادس عن الدفاع عن بيت المقدس
٩٧	الأحداث أسرع من البرق
٩٨	الفصل الخامس والعشرون.....
٩٨	اللحظة التي يتخلى الغرب فيها عن عملائه
٩٨	لحظة غير منطقية لكنها فاصلة
٩٨	السيناريوهات البيولوجية البديلة
٩٩	السلام الدافئ.....
٩٩	الحقد على الذات
١٠٠	البناء الدرامي

كتب المؤلف

في تاريخ العلماء و تراجمهم

- الدكتور محمد كامل حسين عالما ومفكرا وأديبا [إصداران مختلفان]
- سيرة حياة علي مصطفى مشرفة [ثلاثة إصدارات مختلفة]
- سيرة حياة العالم الأديب د. أحمد زكي [إصداران مختلفان]
- الدكتور علي باشا إبراهيم
- الدكتور نجيب محفوظ رائد أمراض النساء والتوليد
- الدكتور سليمان باشا عزمي أول أطبائنا الباطنيين
- الحكيم الجراح: سيرة حياة د محمد عبد اللطيف [طبعتان]
- عاشق العلم: د. أحمد مستجير

في تاريخ العلم

- آفاق الطب الإسلامي: رؤية علمية وتاريخ فلسفي
- تاريخ مجمع الخالدين: لغة عربية وتقاليد فرنسية
- رؤساء الجامعات اللغوية العربية
- الجامع الأزهر باعثاً لشرارة النهضة الموسوعية العربية الحديثة
- الشمعة الأمريكية في نهضة الشام الثقافية الحديثة
- دليل الخبرات الطبية المصرية وتاريخ التعليم الطبي في مصر
- تكوين العقل العربي: مذكرات المفكرين والتربويين
- أقوى من السلطة: مذكرات أساتذة الطب
- كيف أصبحوا عظماء : دراسات ورتاءات [طبعتان]

في تاريخ الفكر الإسلامي

- الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده
- محمد الخضر حسين وفقه السياسة في الإسلام
- الشيخ الظواهري والإصلاح الأزهرى
- أصحاب المشيختين: سيرة خمسة جمعوا بين المشيخة والافتاء
- الأزهر الشريف والإصلاح الاجتماعي والمجتمعي
- العيش من العاصفة: الباقوري والبهى وعبد الناصر
- حوارات الدين والطب والسياسة
- استشراف إشكاليات المستقبل الإسلامي

في تاريخ الحقبة الليبرالية وتراجم اعلامها

- زعيم الأمة مصطفى النحاس باشا وبناء الدولة الليبرالية
- علي ماهر باشا ونهاية عصر الليبرالية
- محمد محمود باشا وبناء دولة الأقلية
- إسماعيل صدقي باشا
- عثمان محرم مهندس الحقبة الليبرالية المصرية
- المقامر و المغامر و المكابر : ثلاثة زعماء مصريين
- الشركاء المنتشاكسون في ثورة ١٩١٩
- القضاء والرئاسة في زمن السياسة : ثمانية من رجال الدولة
- على مشارف الثورة: مذكرات وزراء نهاية عهد الملكية
- في كواليس الملكية : مذكرات رجال الحاشية
- في رحاب العدالة: مذكرات المحامين في عصور مصر الحديثة
- في ضوء القمر: مذكرات قادة العمل السري والاعتقالات
- العمل السري في ثورة ١٩١٩ مذكرات الشبان الوفديين

في تاريخ العسكرية المصرية والامن القومي

- النصر الوحيد: مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٧٣ [طبعتان]
- الامن القومي لمصر: مذكرات قادة المخابرات والمباحث [طبعتان]
- الطريق إلى النكسة: مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٦٧ [طبعتان]
- في أعقاب النكسة: مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٦٧ - ١٩٧٢
- قادة الشرطة في السياسة المصرية [طبعتان]
- عسكرة الحياة المدنية: مذكرات الضباط في غير الحرب
- القائد الشهيد عبد المنعم رياض [إصداران مختلفان]
- صانع النصر المشير أحمد إسماعيل : مايسرتو العبور [إصداران مختلفان وطبعات متعددة]

في تاريخ حقبة ١٩٥٢

- أهل الثقة وأهل الخبرة: مذكرات وزراء الثورة [إصداران مختلفان]
- نحو حكم الفرد: مذكرات الضباط الأحرار [إصداران مختلفان]
- الثورة والحزبية: مذكرات المرأة المصرية [إصداران مختلفان]
- من أجل السلام: مذكرات رجال الدبلوماسية المصرية
- دهاليز الناصرية
- سيد مرعي: شريك وشاهد على عصور الليبرالية والثورة والانفتاح
- شهيد النزاهة الثورية: عبد اللطيف البغدادي
- جمال سالم: نشوة السلطة
- زكريا محي الدين: بلاغة الصمت
- الدافق والدافع والدافئ: صلاح سالم وكمال الدين حسين و حسين الشافعي
- محاكمة ثورة يوليو: مذكرات رجال القانون والقضاء
- يساريون في عصر اليمين: مذكرات قادة الفكر اليساري المصري
- تحت الأرض وفوق الأرض: غربة اليسار المصري
- وشائج الفكر والسلطة: تأملات في الإنسان والدور

في التاريخ العربي والإسلامي

- الفلسطينيون ينتصرون أخيرا
- إفريقيا الساخنة في الحرب الباردة
- سوريا ولبنان قبل الناصرية والنصيرية
- البصيرة التي تجاوزت الحصار
- في الحوار الإسلامي
- المسلمون والأمريكان في عصر جديد
- الربيع العربي والخريف الأمريكي: دراسات تشريحية للتوازنات المستحدثة
- حتى لا تتكرر الحروب الصليبية: رؤية استشرافية لإرهاصات متنامية
- استئصال سرطان الإسلاموفوبيا
- ظاهرة الحقد على الذات: صراع السلطة والهوية في مجتمع إسلامي

في تاريخ الحكومة

- النخبة المصرية الحاكمة (١٩٥٢-٢٠٠٠)
- كيف أصبحوا وزراء: دراسة في صناعة القرار السياسي
- الوزراء ورؤسائهم ونواب رؤسائهم ونوابهم [إصداران مختلفان]
- البنیان الوزاري في مصر ١٨٧٨-٢٠٠٠ [إصداران مختلفان]
- المحافظون [إصداران مختلفان]
- التاريخ يفشي أسرارهم: دراسات وآراء في السيادة والسياسة
- التشكيلات الوزارية في عهد الثورة

ثورة يناير والربيع العربي

- أحلام اليقظة: الصراع الاجتماعي في ثورة يناير
- السياسة الغائبة في ثورة حاضرة: متى تكتمل ثورة يناير؟
- إشراقات الربيع العربي: استعراض تاريخي لصعود فكرة الثورة
- أصداء ثورات الربيع: قياسات معيارية للموجات الثورية

الثورة المضادة

- العصف المأكول: حكومات أسرعت بثورة يناير
- الهباء المنثور: السلطة والنخبة عقب ثورة يناير
- بحران لا يلتقيان: السياسة والقانون بعد الثورة
- الديموقراطية المحسوبة: انتلافات والتفافات
- المنشوات الانقلابية الهيكلية: تحليلات موضوعية للثورة المضادة
- كيمياء الثورة المضادة: تحليلات نسيجية للبنية الاجتماعية

في كتابة التاريخ والمؤرخين

- أدياء التنوير والتاريخ الإسلامي [إصداران مختلفان]
- النجوم المتعاقبة في كتابة التاريخ المعاصر
- النوافذ المتلونة في كتابة التاريخ المعاصر
- الزوايا الكاشفة في كتابة تاريخنا المعاصر
- الانطباعات الذكية في كتابة تاريخنا الثقافي والفني: يرحمهم الله: [إصداران مختلفان]
- كيف رأيت ثورة يوليو صورتها في المرأة

في الفكر التربوي

- آراء حرة في التربية والتعليم
- الإصلاح الجامعي: الجودة من أجل البقاء
- بناء الجامعات والأكاديميات: مذكرات رواد العلوم والفنون
- في حدائق الجامعة: مذكرات خريجي جامعة القاهرة في عقدها الأول
- مستقبل الجامعة المصرية

في الفكر التنموي والاقتصادي

- التنمية الممكنة: أفكار لمصر من أجل الازدهار
- الصحة والطب والعلاج في مصر [إصداران مختلفان]
- مستقبلنا في مصر: الطول الجزيئة هي الأجدى أحيانا [إصداران مختلفان]
- القاهرة تبحث عن مستقبلها
- عقبات التنمية العربية: دراسة حالة وحادة
- الأخسرون أعمالاً: الاقتصاد والفساد في مصر
- ثلاثية السياسة والصناعة والفن : مذكرات أساتذة الهندسة

الوجدانيات والرحلات

- أوراق القلب: رسائل وجدانية
- أوام الحب: دراسة في عواطف الأنثى [٣ طبعات]
- رحلات شاب مسلم [٣ طبعات]
- شمس الأصيل في أمريكا [طبعتان]
- حياتي في ألمانيا
- باريس الحبوبة: الخيال صنع الحضارة
- باريس الرائعة: الزهور والنور والعطور
- باريس الفاتنة: أصداء باريسية في أدينا المعاصر
- رحلات في بلاد العرب

في تاريخ الأدب والثقافة والصحافة

- كلمات القرآن التي لا نستعملها : طبعتان
- مجلة الثقافة (١٩٣٩-١٩٥٢) تعريف وفهرسة وتوثيق
- فن كتابة التجربة الذاتية: مذكرات الهواة والمحترفين
- في ظلال السياسة: نجيب محفوظ [٣ طبعات]
- توفيق الحكيم: من العدالة إلى التعادلية
- على هوامش الأدب
- هل انتهى عصر الثقافة الوطنية
- في خدمة السلطة: مذكرات الصحفيين [طبعتان]
- الثورة والإحباط : مذكرات أساتذة الأدب والأدباء
- ثلاثية التاريخ والأدب والسياسة: من بين سطور حياتنا الأدبية [إصداران مختلفان]
- تسعة عشر استاذاً وصديقاً، تراجم ١٩ من أعلام مصر
- مصريون معاصرون [طبعتان]
- محمد طاهر الدباغ: أستاذ الجيل في السعودية

في الطب والأعمال الموسوعية

- القاموس الطبي نوبل ٣ أجزاء (بالاشتراك مع أد محمد عبد اللطيف)
- الببليوجرافيا القومية للطب المصري ١٣ جزءاً
- الوظائف الإنبساطية للقلب
- أمراض القلب الخلقية: الثقوب والتحويلات
- أمراض القلب الخلقية الصمامية
- أمراض القلب في المسنين

كتب للناشئة

- المشير أحمد إسماعيل: من الميلاد إلى النصر
- الدكتور علي باشا إبراهيم: رائد الطب المصري
- مصطفى مشرفة

Prof. Mohamed El Gawady

ISIN : 0000 0001 2122 604X

Islamophobia Cancer Eradication





الدكتور محمد راجوادی

يتنفس هذا الكتاب مجموعة من الأمنيات الجميلة التي ترنو بشغف إلى رسم أليات لنهاية سرطان الإسلاموفوبيا من خلال تشريح حالتها الراهنة وتحليل تطوراتها المرضية المؤجل علاجها والقابلة للشفاء . ويقدم الكتاب مقاربات مستحدثة لما نشهده من ظواهر متعددة من قبيل الصراع الراهن تجاه الإسلام ، و تحول الحرب عليه إلى مرض وبائي، وتأجج الصراع الديني في عصر العولمة.

